في التاريخ
مقالات ودراسات في تاريخ العصور الوسطي



د.فتحي عبد العزيز محمدط

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

يـزدحم التـاريخ بخبـرات الإنـسان عبـر العـصور ، ويمتلي بتجارب شتي هي في نهاية الأمـر مـسيرة مقـدر لـه أن يخـوض غمارهـا، وعليـه أن يعيـد اكتشافها لعله في محاولته تلك يستخلص منها العبـرة ويـدرك موقعـه ويـصل إلـي صـياغة أفـضل لتاريخه الممتد منذ القدم وإلي ما شاء الله.

وبعـد فهـذه مجموعـة مـن المقـالات والدراسـات التاريخية ضمن حقبة التاريخ الوسـيط كتبتها علـي فتـرات متباعـدة وأردت جمعهـا فـي هـذا الكتـاب عـسي أن ينتهـي شـتاتها بـين مجـلات أو مواقـع الكترونيـة لتكـون بهـذا فـي مـأمن مـن الهجـر غيـر المقصود . والله الموفق

فتحي عبد العزيز

تكنولوجيا الطرق في العصور القديمة
(عند اليونان والرومان)

د. فتحي عبد العزيز محمد

أستاذ مساعد تاريخ العصور الوسطي

إن كلمة technology **عبارة مركبة من كلمتين مأخوذتين أصلا من اليونانية** Techno **ومعناها المهارة أو الفن ومن** Logo **وتعني العقل وهي هنا بمعني علم وبذا تعني العلم المرتبط بشكل منظم بالفنون الدقيقة أو التطبيقية ...غير أنه يمكننا القول أن التكنولوجيا في العصور القديمة في أدني مستوي لها هي المحاولة التي يقوم بها الإنسان للسيطرة علي الطبيعة ، فيغيرها لتصبح بيئة أكثر ملائمة له . والتكنولوجيا هي الأعمال التي عن طريقها يحدث ذلك التغيير . ولم يأت ذلك التغيير إلا مما يراه في الطبيعة ذاتها من أمثلة ، حيث كان الإنسان يقلد ما يراه بوسائل حرفية ليرقي ببيئته . إن ملاحظة ذكية لشجرة تميل في نموها علي نهر جعله يفكر في إنشاء الجسور ، وتم ذلك بطريقة علمية مع مضي الوقت . وهنا نجد اختلافا في تناول كل من اليونان والرومان لمسألة العلم النظري وتطبيقه .**

ومن الشائع عن الإغريق حبهم للعلم النظري عن التطبيقي ، وأن الرومان يحبون التطبيق للعلم النظري والاستفادة منه . غير أن ذلك التصور مبالغ فيه . حيث ابتكر الإغريق واستخدموا اختراعات تقنية ، وأنفق الرومان الوقت علي ملاحظات نظرية .

ومهما يكن من أمر، فقد حسنت التكنولوجيا بغير شك حياة القدماء ، واستمرت في ذلك الدور إلي يومنا هذا . ومما استرعي انتباه القدماء صعوبة الانتقال من مكان إلي آخر . حيث واجهتهم عوائق طبيعية مثل الجبال والغابات ، ودفعهم ذلك إلي العمل علي شق الطرق وتمهيدها وتعبيدها . ومن الطرق القديمة طريق ساردیس ـ سوسا وهو يبين مدي اهتمام الفرس بإنشاء الطرق بين المدن المهمة في إمبراطوريتهم . وكان ذلك الطريق يربط بين ساردیس في غربي آسيا الصغرى وسوسا بالقرب من الخليج العربي ، ويعرف بالطريق الملكي . وقد استخدم لإيصال البريد السريع بتناوب الخيالة . وقد بهر ذلك الطريق اليونانيين . وكانت

الخيول تقطعه في تسعة أيام (٢٦٠٠كلم) . وعلي الرغم من أن الطريق لم يكن ممهدا ؛ إلا أنه كان ملائما للمركبات . وأحيانا ما كانت تربته الطينية تعوق تلك المركبات عن الحركة خاصة عقب الأمطار . وقد ذكره هيرودوت حيث سلكه ذات يوم .

وبالنسبة لطرق اليونان، فإن هوميروس الشاعر اليوناني المعروف ، لم يتحدث مباشرة عن الطرق في أيامه ، إلا أن حديثه عن العربات المتنقلة بين البلدان ألمحت إلي وجود أكثر من طريق مستخدم في ذلك الوقت . وقد كان بإمكان تليماخوس أبن أوديسيوس القيام برحلة داخل اليونان بين بيلوس واسبرطة في يومين ، وهي مسافة تقدر بأكثر من ٧٥كلم . ولدينا نص تاريخي يقول : " شرع أولادي في إحضار الخيول ذات الرقاب الطويلة التي ينسدل عليها الشعر الذهبي الجميل لتليماخوس وشدوها إلي عربة حتى يمكنه أن يأخذ الطريق " هكذا تحدث نسطور ملك بيلوس ، وقد استجاب أبناؤه سريعا بربط تلك الجياد الرشيقة إلي العربة . وسرعان ما اعتلي تليماخوس المركبة الرائعة ، وصعد إلي جواره بيسيستاريوس ابن نسطور قائد الرجال . وأخذ العنان بيده وساط الجياد ، فأسرعت إلي السهل تاركة خلفها قلعة بيلوس . وظلت الجياد تهز النير فوق أعناقها طوال اليوم . تلك الصورة الرائعة لرحلة تليماخوس اليوناني تبين التكنولوجيا المستخدمة في النقل والمواصلات في حقبة زمنية سحيقة القدم .

ويلاحظ أنه في الحقبة الرومانية ، لم تمتد الطرق اليونانية أكثر مما كانت عليه ، ولعل ذلك ناجم عن طبيعة سطح اليونان وجغرافيتها ، أو لتضاؤل أهميتها في عهد الإمبراطورية الرومانية . غير أن المؤرخ بوسانياس ـ صاحب كتاب " وصف اليونان" ـ أبدي دهشته لمناسبة تلك الطرق لحركة المركبات بأنواعها المختلفة . وذكر أن الطريق من ميجارا إلي كورنثة كان مشيدا للمتهورين والعقلاء للسير عليه . وقد قام الإمبراطور الروماني هادريان بتوسعته . وكان يمكن لاثنتين من المركبات أن تتجاوز إحداهما الأخرى إذا تقابلا (طرق مزدوجة بالمعني الحالي) . وظلت الطرق جيدة في مقدونيا باليونان حتى عام ١٩٠ ق.م كما ورد في كتاب " تاريخ روما ". حيث كان الطريق من تيجا إلي أرجوس مناسبا للعربات الثقيلة . وكان بالفعل طريقا عاما جيدا يشبه الطرق السريعة حاليا . أما الطريق عبر براناسوس فلم يكن جبليا بالكامل . وكان مناسبا أيضا للعربات الثقيلة .

ومما يلفت الانتباه ، أن تشييد الطرق سواء اليونانية أو الرومانية لم يكن اعتباطا ، وخاصة فيما يختص بأطوالها وأهميتها. ويمكن أن نطلق علي ذلك لفظة التوجه إن أحد أسباب التباين بين طرق اليونان والرومان كان الاختلاف في نظر كلا منهما تجاه المنفعة من إقامتها ولم يتجاهل اليونانيون ذلك لكنهم لم يعلقوا عليه أهمية مثلما فعل الرومان . فكان الإمبراطور جايوس جراكوس يعطي كبير اهتمام للطرق ويدرك أهميتها إلي جانب الحرص علي جمالياتها . وأن تكون مستقيمة قدر الإمكان. وكانت توجد في مداخل الطرق حجارة تذكارية تبين متى بني الطريق وطوله . ولدينا نقش لابن جايوس يذكر فيه : " لقد شيدت هذا الطريق من ريجيوم إلي كابوا وأقمت عليه الجسور ومهدته بحجارة صلبة وأقمت عليه العلامات الإرشادية". ولا يغيب عن البال المثل القائل كل الطرق تؤدي إلي روما . ولم يغفل الرومان أمر صيانة الطرق ، فلم يبخلوا عليها لما تمثله من قيمة في حال السلم والحرب لنقل التجارة والناس والجيوش . وإلي هنا رافقتكم السلامة .

(نشرت في مجلة النقل والمواصلات بالمملكة العربية السعودية)

بيزنطة : نساء في السلطة

شهد التاريخ علي مر العصور قديما وحديثا صعود نساء إلي سدة الحكم ، وتمتعن في أحيان كثيرة بالنفوذ والجاه والسطوة ، وبلغن من الشهرة حدا كبيرا بما فعلن من أعمال سواء للحصول علي السلطة ، أو بما قمن به خلالها بما يحسب لهن أو عليهن . وحديثنا هنا عن بعض أولئك السيدات اللاتي تولين السلطة في الإمبراطورية البيزنطية في الفترة من ٥٢٧م وحتى عام ١٢٠٤م ، وهو العام الذي تعرضت فيه الإمبراطورية للسقوط في أيدي اللاتين فيما يعرف بالحملة الصليبية الرابعة . وفي عجالة نعرض لما قالته المصادر والدراسات الحديثة بشيء من التحليل لما فعلن وما كن يردن فعله . وهنا لا نتطرق إلي أرض بكر ، فقد سبق إلي البحث في هذا الأمر شارلز ديل في عمله المكون من جزأين وهو بعنوان Figures Byzantines ، وأيضا المؤرخ دونالد نيكول الذي كتب عن " سيدات بيزنطيات " متناولا سيدات أسرة باليولوجس.وأيضا المؤرخة Lynda Garland التي قامت بدراسة علمية شيقة عن دور الاباطرات البيزنطيات في تاريخ الإمبراطورية بعنوان أباطرات بيزنطيات صدرت في العام ١٩٩٩م وكذلك الدراسة الصادرة في العام ٢٠٠٢ للباحثة للباحثة آن ماكليان "بعنوان الأباطرات الأوائل لبيزنطة ". وعلي الرغم من تلك الدراسات القيمة فلا تزال الحاجة ماسة لمزيد من الدراسة لمزيد من الحقيقة .

" لقد اخترت بتفويض إلهي لأجل أمن ومجد العالم ، لقد ألحقت بمشيئة الله بذوي العباءة الإرجوانية ، وباركك الله القدير وتوجك بيديه "

تلك كانت كلمات تقال ضمن ما يتم من طقوس احتفالية لزواج إمبراطور من امرأة تنضم بعدها لأصحاب العباءة

الإرجوانيــة فــي بيزنطــة. وهــي تعكــس مــا تتــضمنه أيديولوجية إجراءات التتويج . وبالطبع فإن الـسلطة تتمثـل تلقائيا في شخص الإمبراطور ، غير أن بعض النساء تمكن من الفوز بها ، والسيطرة علي أمور الإمبراطورية في ظـل ظروف معينة . إن معظم من جئن إلي السلطة كن أوصياء علي أبناء صغار ، وهو ما يعني فرض حكمـا انتقاليـا حتـى يبلغ الصغير السن القانونية وهي عادة الـسادسة عـشر . غير أن غالبية الوصيات كن غير راغبات فـي تـرك الـسلطة لما لها من بريق ومجد . ففي سـبيل البقـاء علـي العـرش قامت الإمبراطورة ايرين بـسمل عينـي ابنهـا قنـسطنطين السادس .ولا ريب أن ذلك كان عملا إجراميا اقترفته ايرين للبقاء في الحكم . أما الإمبراطورة إيدوكيا ، فعلـي الـرغم من تعدي ابنهـا ميخائيـل للـسن القانونيـة ، إلا أنهـا رغبـت في أن تظل في السلطة مشاركة لـه . بـل إننـا نـري فـي حالات استثنائية إصرارا مـن بعـض الاباطرات علـي تـولي الـسلطة نهائيـا دون إعادتهـا للإمبراطـور الـصغير ، وكانــت لـــديهن الفرصـــة فـــي اختيـــار زوج وجعلـــه إمبراطـــورا. وســـنعرض ســـريعا للنـــساء اللاتـــي بلغـــن المرتبـــة الإمبراطورية سـواء عـن طريـق الـزواج أو كـونهن وصـيات علي العرش .

ثيودورا :

أولي تلك النـساء الإمبراطـورة ثيـودورا زوجـة الإمبراطـور جــستنيان ، قيــل فــي حقهــا الكثيــر مــن جانــب المــؤرخ بروكوبيوس في كتابـه التـاريخ الـسري . حيـث ألـصق بهـا العديد من الصفات أقلها أنها امرأة سيئة الـسمعة وضـيعة الأصل . والواقع أنها كانت لاعبة من لاعبات الـسيرك ، مـن أصل متواضع ، أحبها جستنيان وتزوجهـا رافعـا مـن قـدرها بالتـالي إلـي مرتبـة إمبراطـورة . ويبـدو غريبـا علـي امـرأة عادية مثلها أن تقوم بمـا قامـت بـه مـن أعمـال ذات شـأن في حياة زوجها وحيـاة الإمبراطوريـة ذاتهـا . فقـد انهمكـت فـي أمـور الـسياسة بـاحتراف واقتـدار . فـشاركت زوجهـا فيما أصدر من قوانين ، وجعلته يهتم بحقوق المرأة . ومنها حق الممثلات واللاعبات في الزواج بأي رجل من أي طبقة اجتماعية كان . وهو حـق لـم يكـن معتـرف بـه مـن قبـل .

ويخبرنا بروكوبيوس في كتاب آخر عن دور الإمبراطور وزوجته في مضمار الإحسان فيذكر اهتمامهما بالأطفال ، وكذلك تخصيصهما قصرا منيفا كدير للساقطات التائبات . ويبدو أن التاريخ قد أعطي لثيودورا وأسرتها وجهه ، فقد برزت من عائلتها امرأة كان لها شأن في تاريخ الإمبراطورية البيزنطية وهي آيلا صوفيا زوجة الإمبراطور جستين . غير أن أفضل أعمالها كان وقوفها إلي جانب زوجها عندما تأزمت الأوضاع وصار العرش الإمبراطوري في خطر إبان ما عرف بثورة نيقا عام ٥٣٢م ، حيث شدت من أزر زوجها في مواجهة تلك الثورة . وتبقي عبارتها القوية تفجر في النفس وقت الأزمة إحساس بالشجاعة وقدرة علي الصمود ، فعندما رغب جستنيان في الهرب من مواجهة الثائرين ، قالت له أن كان الهروب يقود إلي النجاة فهو خطأ في هذه الظروف العصيبة .. وبالنسبة لي فان العباءة الإمبراطورية خير الأكفان " I consider that flight, even if it leads to safety, is especially wrong at this juncture. ..... to me that royalty is a good funeral shroud.
، وطلبت من القائد المخلص بليزاريوس القضاء علي الثائرين . ويذكر أن بليزاريوس تمكن من إنهاء الأزمة علي خير ما يرام . ولا جدال أن الفرق كبير بين تصرفات هذه المرأة وهي تحت أضواء الملاعب وصخب السكارى ، وتصرفاتها وهي في بريق المجد والأبهة الإمبراطورية .

آيلا صوفيا

خلف جستين خاله جستنيان في الحكم في الرابع عشر من نوفمبر العام ٥٦٥ ، وللأسف فإن سمعته وزوجته صوفيا كانت سيئة ، وقد عانيا معا من روايات المؤرخين غير المحببة إليهما وبدت الروايات التاريخية عنهما ظالمة إلي حد ما فيما يتعلق بعهديهما . وبصفة خاصة ما ذكره المؤرخ حنا من افسوس الذي ذم الاثنين معا لدورهما في اضطهاد اليعاقبة، وقد ناله من ذلك الاضطهاد نصيب حيث تم سجنه. والمعروف أن صوفيا كانت ابنة أخت ثيودورا ، وقد رأي فيها حنا امرأة متسلطة تحب السيطرة وأن زوجها مصاب بالجنون . والواقع أنها

كانت تسيطر علي الحكومة الإمبراطورية . وكانت تـري أن السلطة الإمبراطورية من حقها ولقبت نفسها بلقب آيلا " آيـلا صـوفيا" وكـان لقـب آيـلا قـد مـنح لأباطرات البيـت الثيودوسـي وخلفائهن . والواقع أن صـوفيا حققـت مـا لـم تكـن تطمـح فيـه بزواجهـا مـن جـستين، ولا شـك أن هـذا الزواج كان بترتيـب مـن ثيـودورا التـي أرادت أن تعلـي مـن شأن أسـرتها ، فقامت بترتيـب الأمـر مـع زوجهـا جـستنيان بتزويج صوفيا ابنـة أختهـا الكبـرى كوميتـو لجـستين الـذي كان مهووسا بأعمـال خالـه جـستنيان ومجـد الإمبراطوريـة إلي حد بعيد. لعبت صوفيا دورا حيويا فـي اعـتلاء جـستين العرش الإمبراطوري ، وساعدت فـي ترتيـب الأحـداث مـن وراء السـتار . والمعروف أن جـستنيان لـم يـسم خلفـا لـه ، غير أن جستين كانت له المزية علي ابـن عمـه المنـافس الرئيسـي له في بـؤرة الأحـداث . فقـد اعتمـد علـي دعـم الـسيناتو لـه فـي ارتقـاء العـرش . وتـم إقـراره سـرا كإمبراطور في القصر من قبل كبير السيناتو ، والمناداة بـه من قبـل الجـيش وبقيـت صـوفيا خـلال المراسـيم الجاريـة لتنصيبه فـي الخلفيـة ، ولكـن الحـضور دعـوا باسـمها مـع جستين فهما نورا العالم . وهنا بدأ دور صوفيا فقد تـدخلت في أمور عدة مثل الشأن الاقتصادي والمنازعات الدينيـة . ونعتمد هنا علي ما ذكره حنـا مـن افـسوس ، حيـث أشـار إلي عظيم تأثيرها علي زوجها فيما تعلق بالناحية الماليـة ، والإعفاءات الـضريبية ، وإسـقاط الـديون ، ممـا أكـسبهما محبة كل الطبقات في بداية عهديهما . كما سـاندت مثلهـا في ذلك مثل خالتها تيودورا طائفة اليعاقبـة .وكـان هـدفها وزوجهـا مـن ذلـك إنهـاء القطيعـة داخـل الكنيـسة الأرثوذكسية.

غيـر أن الأمـر المثيـر للجـدل ، تمثـل فـي علاقتهـا بطيبريوس ابن عم زوجها ، فكانت علي علاقة معـه ، ورأت أن من الممكن الزواج به بعد وفاة زوجها الذي اشتد مرضه العقلي، وسعت إلي أن يكـون خليفتـه وتـشاركه العـرش غير أن طيبريوس تزوج من إنـو . وعلـي الـرغم مـن تمتعـه بلقـب قيـصر إلا أنـه حـرم مـن أن يـدخل بزوجتـه القـصر الإمبراطوري بأمر من صوفيا . وعاشـت إنـو عيـشة مهـددة أمـام قـسم صـوفيا "أنـا ومهمـا طـال عمـري، لـن أتـرك مملكتي ، أو تاجي لأخري، ولن تدخل القصر سيدة غيـري

طيلة حياتي " . غير أن الأمور اختلفت بوفاة زوجها ، فقد توج طيبريوس إمبراطورا، ودخلت زوجته القصر في حياة صوفيا وإن ظلت صوفيا في القصر به بلا حول ولا قوة .

الإمبراطورة إيرين (٧٦٩ـ ٨٠٢)

ولدت ايرين في أثينا وربما كان ذلك فيما بين عامي٧٥٠ و ٧٥٥ ، وتذكر المصادر أن الإمبراطور قنسطنطين الخامس رغب في زواج ابنه الأكبر ليو الرابع ، ولم توضح سبب اختيار ايرين ، بيد أنها كانت من أسرة عريقة يحتل أفرادها مناصب رفيعة في الإمبراطورية . وكانت العادة جرت أن يتم عرض للفتيات المرشحات للزواج من الوريث ليختار أو بالأحرى أمه واحدة منهن .

أيا ما كان الأمر ، وصلت ايرين إلي القسطنطينية في الأول من نوفمبر عام ٧٦٩م في حماية العديد من السفن الحربية ، وكانت ترتدي ثيابا حريرية رائعة الألوان . واستقبلها سادة المدينة وزوجاتهم . وتم إعلان خطبتها في الثالث من نوفمبر ، وتوجت في السابع عشر من ديسمبر ، وتلا ذلك حفل زفاف عظيم . وفي الرابع عشر من يناير ٧٧١م أنجبت وليدها قنسطنطين وقد سمي علي اسم جده الذي مات بعد ذلك في أغسطس عام ٧٧٥م ، وبذلك ارتقي زوجها ليو الرابع العرش الإمبراطوري . كان ليو مشربا بتعاليم والده ضد الأيقونيين (عباد الصور) حيث تعسف في معاملتهم إلي حد القتل ، في الوقت الذي كانت ايرين متعاطفة معهم الأمر الذي أدي إلي سوء العلاقة بينهما .

ومن الجدير بالذكر ، أن ليو قام بإعلان ابنه البالغ من العمر خمس سنوات إمبراطورا في عام ٧٧٦ م وأخذ الأيمان بالولاء له من قادة الجيش في الوقت الذي كان ولاء السيناتو والشعب لقنسطنطين مضمونا لمحبتهم لقنسطنطين الجد ورغبتهم في بقاء السلطة في أسرته .

وربما أتاحت وفاة ليو الرابع في الثامن من سبتمبر ٧٨٠الفرصةلإيرين للاستمرار في سياستها تجاه الأيقونيين حيث تولت الحكم بوصفها وصية علي ابنها قنسطنطين البالغ من العمر عشر سنوات ، وأيا ما كان دورها في هذا الشأن إلا أن الشأن العسكري هو الأهم بالنسبة لإمبراطورية عظيمة القدر مثل الإمبراطورية البيزنطية ، والتي كانت تواجه مطامع الأعداء من كل

جانب .غير أنها لم تكن قادرة علي إدارة أمر الجيش ، وربما كان فشلها في ذلك بسبب تخلصها من كبار قادة الجيش المعروفون بمعاداتهم للصور والأيقونات (اللا أيقونيون) مما أدي إلي إضعاف الجيش الإمبراطوري .كما أنها قامت بتعيين قادة من اختيارها في مواقع هامة علي الحدود .وتجدر الإشارة إلي أن علاقتها بفيالق الحدود أو ما عرف بالثيمات (الثغور) كانت غير مستقرة وخاصة قادة ثغر الأرميناق ، فالجند الذين عملوا بإخلاص تحت قيادة الإمبراطور الراحل يرون فيها مجرد أداة للحفاظ علي العرش الإمبراطوري ، إلا أنها لم تكن كذلك في نظرها . ويمكن لنا القول أيا كان دورها في قيادة إمبراطوريتها أن سياستها العسكرية كانت بعيدة تماما عما كان متوقعا ، فقد تعرضت لهزائم علي الجبهة الشرقية علي يد هارون الرشيد زمن خلافة والده المهدي . وترتب علي ذلك تعهدها بدفع جزية ٧٠٠٠٠دينار سنويا ولمدة ثلاثة أعوام . وقد دفعت هزائمها أمام البلغار ابنها إلي القيام بقيادة القوات في المعارك هناك ووقفت الفرق العسكرية مؤيدة له في الوقت الذي ساءت العلاقة بين الابن وأمه . والواقع أن قنسطنطين خاض حروبا فاشلة ضد العرب والبلغار ، وهو ما يعني أنه فشل كحاكم منفرد . وهنا عادت ايرين إلي الواجهة حاملة لقب إمبراطور شريك في الخامس عشر من يناير عام ٧٩٢. وعملت علي الخلاص من ابنها في اقرب فرصة سعيا لمزيد من السلطة .وسارعت بالقبض عليه، وسمل عينيه لتعود من جديد إمبراطورة لبيزنطة .

والواقع أن التاريخ البيزنطي حافل بصور مختلفة ألوانها للمرأة البيزنطية الحاكمة عرضنا بعضا منها ، وهي صور تبين قدرة عجيبة للمرأة علي تحقيق أغراضها بسبل قد لا تخطر علي بال أحد .

د . فتحي عبد العزيز محمد

عالم البحر المتوسط في العصور الوسطي

د. فتحي عبد العزيز محمد

مر التاريخ الإنساني بفترات وأحداث كثيرة وإن تميز البعض منها بميزة دفعت الكثير من المؤرخين إلي اعتبار البعض من تلك الأحداث بداية حقبة تاريخية ونهاية أخري. وهو الأمر الذي دفع بمكيافيلي في القرن السادس عشر ومن بعده سيلاريوس في القرن السابع عشر إلي القول بفترات التاريخ الثلاثة : عصور قديمة ، وعصور وسطي، عصور حديثة . الأمر الذي أثار جدلا بين المؤرخين (١). فإننا لو قبلنا بهذا التقسيم فما هي بداية كل فترة من تلك الفترات، وما هي أيضا النهاية التي تقف عندها .وأيا ما كانت النهاية التي صار إليها الجدل إلا انه أصبح أمرا واقعا بين المؤرخين والمتلقين لأعمالهم القبول بما قال به سيلاريوس كحل يمكننا معه دراسة التاريخ بشكل يسير يسهل فيه علي المؤرخ والقارئ معرفة ما تميزت به كل مرحلة من مراحل التاريخ الإنساني من أحداث. ولا ريب أن العصور الوسطي كانت مرحلة هامة في تاريخ الإنسانية .

وإذا كان الهدف من هذه الدراسة هو معرفة ما كان عليه عالم البحر المتوسط إبان العصور الوسطي ، فعلينا معرفة ذلك العالم والمجتمعات التي شملها خلال تلك العصور . والمقصود بعالم البحر المتوسط الأقاليم والبلاد التي تحف بشواطئه من جميع الجهات فضلا عن جزره المنتشرة فيه (٢) .

لقد شهد البحر المتوسط في العصور الوسطي مجتمعات ثلاثة رئيسية تميز كل منها بمقومات وخصائص انفرد بها كل مجتمع عن الآخر . أولها المجتمع البيزنطي وهو مجتمع مسيحي أرثوذكسي المذهب، وتميز بدولة قوية هي الدولة البيزنطية ، كما تميز أيضا بتعدد العناصر والأعراق التي كونت شعوب تلك الدولة وقد صبغتها الصبغة الهلينستية بطابعها المعروف .علي الرغم من أن اليونانيين لم يكونوا العنصر الوحيد بين شعوب الدولة .أما المجتمع الثاني الذي يري الدكتور عمر كمال توفيق أنه شقيق للمجتمع الأول فهو المجتمع الأوربي الغربي وشعوبه لاتينية

الأصل، وأنظمته ورث بعضها من قدامي الرومان وأخذ البعض الآخر مما حمله معهم الجرمان في هجرتهم المسلحة من خارج حدود الإمبراطورية الرومانية لالتهام الغرب الأوربي واقتطاع أجزائه لأنفسهم وإقامة ممالك وأمارات لهم به (٢) وكان المجتمع الأوربي الغربي كاثوليكي المذهب يتبع البابوية من الناحية الدينية . أما المجتمع الثالث فهو المجتمع الإسلامي والذي ظهر إلي الوجود بمجيء الدعوة الإسلامية ، ونما سريعا ويتميز بحيويته العجيبة التي بعثها في شعوب قديمة، كما أفلح في بناء حضارة لها طابعها المميز وأثرها الفعال في التاريخ الإنساني .

ويهمنا في أمر تلك المجتمعات الثلاثة هو ما حدث بينها في إطار تواجدها حول البحر المتوسط دائرة التلاقي بينها . والواقع أن أقدم تلك المجتمعات هو المجتمع البيزنطي الذي ورث الإمبراطورية الرومانية وسعي حثيثا لاسترداد ممتلكاتها في الغرب الأوربي من الجرمان، ولكن ذلك الأمر كان عسيرا فعلي الرغم من سعي الأباطرة البيزنطيون لاستعادة الغرب إلا أن الأوضاع المستقرة هناك والممالك الفتية الجرمانية كانت وراء تراجع بيزنطة عن المطالبة بالغرب الأوربي. كما كان علي البيزنطيين مواجهة التقدم الذي أحرزه المسلمون علي رقعة من أراضيهم في الشام وشمال إفريقيا في وقت كانوا قد فرغوا فيه من حروب استمرت طويلا سواء علي الجانب الشرقي مع الفرس أو الجانب الغربي مع الجرمان وغيرهم من الآفار والبلغار و الصقالبة . .

بداية كان البيزنطيون يعتقدون أن الإسلام مجرد نحلة أو مذهب من المذاهب فلم يأبهوا له ، بيد أن الدعوة التي أرسل بها الرسول الكريم صلي الله عليه وسلم إلي هرقل إمبراطور الروم أبانت لهم أن هناك دين جديد ظهر في الجزيرة العربية وإنها دعوة للإنسان في كل زمان ومكان وكانت الدعوة إلي هرقل علي النحو التالي " بسم الله الرحمن الرحيم ، من محمد بن عبد الله إلي هرقل عظيم الروم سلام علي من اتبع الهدي . أما بعد فإني أدعوك بدعاية الإسلام . أسلم تسلم يؤتيك الله أجرك مرتين فإن توليت فإنما عليك إثم الأريسيين." وتروي المصادر أن هرقل رد ردا حسنا . وإذا كانت رسالة الرسول الأمين إلي هرقل هي بداية العلاقة بين المجتمعين الإسلامي والبيزنطي التي أراد لها الرسول صلي الله عليه وسلم أن تبدأ بالسلام، إلا أن الصدام وقع بالفعل. فقد قام البيزنطيون باتصالات مريبة تهدف إلي تأليب الناس علي الإسلام في الجزيرة العربية .

ومهما يكن من أمر ، فقد أدرك المسلمون خطورة الروم البيزنطيين علي دينهم ومقدار عداوتهم لذلك الدين . لذا فقد أعدوا للأمر عدته ، فقد علم المسلمون أن إمبراطور بيزنطة هرقل الذي كانوا يطلقون عليه " قيصر الروم " يحشد الجيوش بالشام ليضرب الدين والمؤمنين خرج الرسول الكريم ورجاله قاصدين تبوك فخافهم الروم وانسحبوا• لتتوالي بعد ذلك غزوات المسلمين وفتوحاتهم في المناطق الشرقية من البحر المتوسط . وكان نتيجة ذلك أن صارت بلاد الشام بيدهم ويودعها هرقل بمقولته المشهورة " سلام عليك ياسورية لا لقاء بعده " أما الجزء الجنوبي من البحر المتوسط فكان تابعا للروم أيضا وقد بدأ عمرو بن العاص بفتح مصر و لا ريب أن تلك الفتوحات في الشام ومصر قد أحدثت هزة عنيفة في كيان الدولة البيزنطية ، ناهيك عن فقدانها لكل ممتلكاتها في شمال أفريقيا أو الجزء الجنوبي من عالم البحر المتوسط (٥) .

لقد ظهرت قوة فتية في شرق البحر المتوسط وجنوبه في إمكانها أن تسيطر علي أرجائه تماما . وبعد أن كان المتوسط عالما رومانيا من الممكن أن يصبح إسلاميا يخضع للنفوذ الإسلامي تماما وهو ما حدث بالفعل. غير أنه كان ضروريا أن يعدوا للبحر عدة ونقصد بذلك إنشاء البحرية الإسلامية والمعروف أن معاوية بن أبي سفيان كان أول من نظم أسطولا في الإسلام وأول من أرسل حملة عربية إسلامية للغزو في البحر المتوسط . وتم غزو قبرص عام ٢٨هـ . وكانت غزوة ذات الصواري عام ٣١هـ مثالا علي تفوق البحرية الإسلامية في مواجهة الدولة البيزنطية ذات التاريخ العتيد في المواجهات البحرية . استخدمت الأساطيل السلامية في مواجهات تالية لفتح باقي جزر البحر المتوسط وفرض الحصار علي العاصمة البيزنطية زمن الخليفة سليمان بن عبد الملك وإن لم يحقق الحصار أهدافه .

أيا ما كان الأمر ،فقد امتد النفوذ الإسلامي علي السواحل الشرقية والجنوبية للمتوسط . وأدي وجود المسلمين علي الحافة الجنوبية للبحر المتوسط بصفة خاصة إلي احتكاكهم بالمجتمع الثالث وهو الغرب الأوربي وبدأ ذلك الاحتكاك بفتحهم لبلاد الأندلس والتي كانت خاضعة للقوط الغربيين ومنها تقدموا إلي داخل غرب أوربا في الأرض الكبيرة (فرنسا) وذلك موضوع آخر. . . . .

د. فتحي عبد العزيز محمد

المراجع:

١- علي الغمراوي : مدخل إلي دراسة التاريخ الأوربي الوسيط ،القاهرة. ١٩٧٧، ص ٢٧٧
٢- ابراهيم علي طرخان : المسلمون في أوربا في العصور الوسطي، ص١٦.
٣- حسن حبشي :تاريخ العالم الإسلامي ، ج١ ، القاهرة ٢٠٠٢،ص ٤٩
٤- نفسه ، ص ٥٠
٥- عن تلك الفتوحات أنظر :حسنين ربيع : دراسات في تاريخ الدولة البيزنطية ، القاهرة ١٩٩٥ ، ص ٧٨ وما بعدها .

بيزنطة : الحرب عبر طرق وعرة

د. فتحي عبد العزيـــز محمد
أستاذ مساعد تاريخ العصور الوسطي
جامعة الباحــــــــــــــــــة

الإمبراطوريـة البيزنطيـة ، أو الإمبراطوريـة الرومانيـة المتـأخرة ، هي ما نجم عن تقسيم الإمبراطورية الرومانية القديمة إداريا إلـي قسمين شرقي وغربـي . و بمـضي الوقـت تباعـد القـسمان ليقـع القسم الغربي فريسة في أيدي الغزاة الجرمان الذين قـدموا فـي موجات متتالية من شمال غرب أوربا عـابرين حـدود الإمبراطوريـة عند نهري الراين والدانوب . وليتمكنوا في النهاية من إقامة ممالك متعاقبة لهم في ذلك القـسم . أمـا القـسم الـشرقي فقـد احـتفظ بتماسكه وسلطانه وإن ظل أباطرته يحلمون باسترجاع مـا فقدتـه الإمبراطورية في الغرب .

وإذ كانــت الإمبراطوريــة البيزنطيــة امتــدادا للإمبراطوريــة الرومانية القديمة ، إلا أنهـا لم تكـن تعـرف فـي زمنهـا بهـذا الاسـم "الإمبراطوريـة البيزنطيـة" . وكـان لفـظ بيزنطـي يـستخدم بالفعـل للدلالـة علـي قـاطني القـسطنطينية فقـط ، وهـي المدينـة التـي شيدها قنسطنطين علي أنقاض بيزنطة القديمة علي البوسفور ، واتخذها مقرا لحكمة .

وأيا مـا كـان الأمـر ، فقـد ظلـت تلـك الإمبراطوريـة عبـر تاريخهـا الطويـل فـي الغالـب فـي حالـة حـرب دائمـة . فـرض عليهـا ذلـك موقعهـا الاسـتراتيجي فـي آسـيا الـصغري وجنـوب البلقـان ، لقـد كانت في مواجهة تحد دائم مـن قبـل جيرانهـا ، أيـا مـا كـان حجـم وقوة أولئك الجيران . فمن جهة الشرق كان الفرس ، ومن بعـدهم القـوي الإسـلامية المختلفـة التـي ظهـرت فـي المنطقـة . ولعـل الجانــب الــشمالي شــهد قــوي معاديــة متعــددة ، حيــث خاضــت الإمبراطورية معارك ضارية إبان القرنين السادس والسابع للميلاد مع الصرب، والآفار (شـعب تركـي) ، ثـم البلغـار وذلـك مـن نهايـة القرن السابع وحتي بـدايات القـرن الحـادي عـشر . وفـي أخريـات القـرن الحـادي عـشر وطـوال الثـاني عـشر كـان المجريـون ومـن بعدهم الصرب ، وأخيرا الأتراك العثمانيون الذين كانوا انتهوا لتوهم من معارك ضارية في اليونان وجنوب البلقان .

وما يهمنا في هذا السياق هو علي أي طبيعة جغرافية دارت تلك الحروب . لقد كانت الإمبراطورية البيزنطية في معظم الأحيان محصورة في مساحة ضيقة فيما بين جنوب البلقان وآسيا الصغرى بالكاد فيما يعرف حاليا بتركيا واليونان . إلا أنها صارت أكثر اتساعا في منتصف القرن السادس بعد نجاح الإمبراطور جستنيان في غزو الغرب، فشملت المناطق الساحلية لكل الشمال الإفريقي بالإضافة إلي جنوب شرق أسبانيا ، وإيطاليا والبلقان صعودا إلي الدانوب . لكن الأمر لم يدم طويلا ، فسرعان ما تقلصت مساحة الإمبراطورية مرة أخري علي أيدي اللمبارد في إيطاليا والقوط الغربيين في أسبانيا والمسلمين في الشام وشمال إفريقيا ، ويمكن القول أنه علي مدار نصف قرن من الحروب خسرت الإمبراطورية بعضا من أقاليمها الغنية . وبقي ما يهمنا أمره ..

إن كثيرا من المناطق التي بقيت للإمبراطورية كانت جبالا أو أرض جرداء فآسيا الصغري وهي بؤرة لكثير من الأنشطة الإمبراطورية الحربية من القرن السابع وحتي القرن الثالث عشر ، ذات طبيعة جغرافية خاصة حيث تتنوع فيها مظاهر السطح وبالتالي المناخ . فهي تضم سهولا ساحلية وهضاب وسطي وجبال فاصلة تخترقها . ويمكن القول بمثل ذلك علي مناطق البلقان . وفي كليهما فأن الجغرافيا أثرت علي نظام الطرق والمواصلات ، مما فرض علي الإمبراطورية أن تضع ذلك في حسبانها عند وضع خططها العسكرية أو خوض الحروب.ومنها الاهتمام بالإمدادات (مايسمي بالدعم اللوجستي حاليا) من قوي بشرية وغذاء ومأوي ودواب وأسلحة وكيفية تحريك ذلك كله . وكانت لتلك المناطق أثرها في مقدرة الإمبراطورية علي البقاء في ظروف استراتيجية صعبة وجدت فيها .

لقد واجهت الجيوش صغرت أم كبرت ، بيزنطية أم معادية ، الكثير من المشاكل عند عسكرتها أو عبورها لآسيا الصغرى . ومنها بصفة خاصة الطرق الطويلة الممتدة ، وقلة المياه ، والبلدان المكشوفة ، والجبال الوعرة التي تفصل الساحل عن الهضاب الداخلية .

ومما تجدر الإشارة إليه ، أن الطرق القديمة التي أنشئت في الفترة الهلينستية والرومانية ظلت مستخدمة إلي حد ما في الحقبة البيزنطية . غير أن الإمبراطورية البيزنطية قامت في القرن السادس بتطوير عدة طرق حربية وإنشاء سلسلة من الحصون

والقواعد العسكرية خاصة عند مداخل الطرق التي كان تسلكها القوات المسلمة . فمن المعروف أن الاستراتيجيات في حاجة إلي تغيير ، وكذلك الطرق ، حيث تدخل طرق في الخدمة ، وتخرج أخري .

أما في البلقان ، فإن الغالب علي تضاريسها المرتفعات المتوسطة الارتفاع ، وتمثل حوالي ثلثي المساحة الكلية ، وتضم المرتفعات الغربية أكثر السلاسل الجبلية طولا إذ تمتد قرابة ١٥٠٠ كم من الشمال الغربي ألي الجنوب الشرقي وهي جبال الألب الدينارية . أما المرتفعات الشمالية الشرقية فهي سلسلة جبال البلقان بينما تقع جبال رودب في الجنوب.

وما يهمنا من أمر ، هو الطرق في تلك المنطقة ، لقد خدمت عدة طرق منذ الأزمنة القديمة في الوصول إلي داخل إقليم البلقان أو في المرور خلاله من الشمال إلي الجنوب أو من الشرق إلي الغرب . وامتازت البلقان بممرات مسيطرة ضيقة نسبيا لكنها في الغالب مرتفعة . وكان ذلك مثاليا في حرب العصابات ، وظروف الحملات الحربية . وإن كان يصعب الوصول إلي بعض المناطق شتاء . إن هيكل الاتصالات وتأثير السلطة البيزنطية يوضح ذلك .
لقد أثرت الجغرافيا علي استخدام الأرض عسكريا في البلقان كما في آسيا الصغرى . غير أن ما استحدثه الجيش البيزنطي من طرق بالإضافة إلي ما كان موجودا من قبل جعلت الجيش البيزنطي أكثر كفاءة ونجاحا .

ولا يغيب عن البال أن شبكة الطرق الإمبراطورية في البلقان والأناضول لم تكن كاملة كما يفترض بيد أنها ظلت فاعلة . وإذا كانت الطرق في حاجة متواصلة للصيانة ، فإن نظرة علي تكاليف صيانة الطرق في كل من الأناضول بآسيا الصغري والبلقان تبين أن كثيرا منها كان مجرد مسالك ضيقة تصلح للنقل علي ظهور الدواب ، وأنها كانت ممهدة أو صلبة بالقرب من البلدات والغابات .

لقد كانت بيزنطة عالما يحوي كل المتناقضات ، الحرب والسلام . القوة والضعف ، غير أن أشد الأمور غرابة الاتساع والتقلص في المساحة حسب ما تحقق من خلال دروب الحرب من انتصارات أو ما يلحق بها من هزائم ، استمرت تعمل من أجل البقاء فدام زمنها مئة وألف عام .

المزاعم الإمبراطورية
بين البيزنطيين والجرمان

د. فتحي عبد العزيز محمد

يعد الصراع الذي نشب بين الإمبراطوريين البيزنطيين والجرمان في الغرب الأوروبي صراعاً على ميراث ذي شأن ، وهو الميراث التاريخي ، والزعم بأحقية كل منهما فيه ، وإذا كان الصراع قد شمل كل أرجاء الإمبراطورية إلا أن الجانب الغربي كان أوفر حظاً في تلقيه لضربات الجرمان ، وقد دارت حلقات الصراع ما بين دموية مفرطة تمثلت في حروب عدة على أكثر من جبهة ، ودبلوماسية رقيقة ماكرة بلغت حد الطرافة أحياناً .

لقد أدعى كل من الطرفين أحقيته في ميراث الإمبراطورية الرومانية ذات الشأن العظيم ، وإن بدأ الحق إلى جانب البيزنطيين الذين تمسكوا بأنهم رومان قلباً وقالباًَ ، وإن جرفتهم الأحداث بعيداً عن رومانيتهم التي تمسكوا بها بدءاً من القرن السابع للميلاد ، لتحدث تغيرات في عالمهم وتصبغه بصبغة مغايرة سواء في الفكر أو اللغة بل ونمط الحياة ذاته ، الأمر الذي حدا بمؤرخي المدرسة الفرنسية في القرن السابع عشر إلى استخدام كلمة بيزنطي للدلالة على سكان القسم الشرقي من الإمبراطورية الرومانية أو ما عرف بالإمبراطورية البيزنطية "١" ولنعرض للأمر من البدء .

كانت الإمبراطورية الرومانية – كما هو معروف- إمبراطورية مترامية الأطراف ، حازت مساحات واسعة من الأراضي تمتد في معظم أرجاء أوروبا وأجزاء من أسيا شرقي البحر المتوسط ومناطق شمال إفريقيا "٢" ولاشك أنها بذلك كانت أعظم وحدة حضارية وسياسية عرفها التاريخ بما ضمته من أرض وما حوته من مراكز حضارية قديمة "٣" إلا أن تلك الإمبراطورية التي بلغت أوج

مجدها إبان القرن الثاني للميلاد بدأت تترنح تحت وطأة الأزمات مع مقدم القرن الثالث للميلاد .

لقد جرت محاولات جادة من جانب أباطرة مصلحين أقوياء أمثال دقلديانوس "٢٨٤-٣٠٥م" وقسطنطين "٣٠٦-٣٣٧م" لمواجهة تلك الأزمات سواء الداخلي منها أو الخارجي أجلت انهيار الإمبراطورية حيناً من الدهر "٤" والواقع أن المعروف من الأصول التاريخية لأولئك الجرمان قليل لا يعدوا أنهم قوم حلوا أوائل عهدهم في شبه جزيرة إسكنديناوه أخذ فريق منهم في التنقل جنوباً بغرب المانيا ، سعياً وراء العيش أو الجو المعتدل أو حباً في المغامرة كما وصلت جماعة من تلك الأقوام إلى حوض نهر الراين ، ووصلت أُخرى إلى ضفاف نهر الدانوب وسواحل البحر الأسود ، وهذان التياران هما اللذان اصطدمت بهما الإمبراطورية الرومانية . لقد كان الغز الجرماني هو أخطر ما واجهته وعجل بانهيارها ، وفي واحد من محاولات درء ذلك الغز وهجماته الشرسة فقدت الإمبراطورية أحد أباطرتها وهو الإمبراطور فالنتيان "٣٦٤-٣٧٨م" حيث لقي حتفه في معركة تعد نقطة تحول في تاريخها وهي معركة أدرنة "٣٧٨م" "٥".

وكان فالنتيان في وقت سابق سمح لهم بالإقامة في إقليم مواشيا وتراقيا إلا أنهم ثاروا عليه .

وقد سعى خلفه ثيودوثيوس إلى مهادنة الجرمان ، وفي الوقت نفسه السيطرة على أرجاء الإمبراطورية بتقسيمها بين ولديه قبيل وفاته "٣٩٥م" فكان القسم الشرقي من نصيب الابن الأكبر أركاديوس والقسم الغربي من نصيب هونوريوس ، وعلى الرغم من رفض كثير من المؤرخين اعتبار أن ذلك التقسيم هو البداية لظهور ما عرف بالإمبراطورية البيزنطية في القسم الشرقي "٦" ، إلا أنه من الثابت تاريخياً تباعد شطري الإمبراطورية منذ بدء ذلك التقسيم ، كما أختلف مصير كل منهما اختلافا بيناً ، فظهرت في الشرق دولة قوية استمرت على ما يزيد على الألف عام تحافظ على التقاليد الإمبراطورية ومظاهر القوة والأبهة ، بينما أخذ القسم الغربي يتآكل تحت ضربات الغزاة الجرمان الذين قاموا بعزل الإمبراطور الروماني للغرب رومولوس أو غسطولوس عام ٤٧٦م ، حيث قام القائد الجرماني ادواكر بخلعه ، ومن العجيب أن بيزنطه غفرت لأدواكر فعلته ولعل مرجع ذلك أن بيزنطة كانت ترى في رومولوس الإمبراطور الصبي مغتصباً للعرش وبالتالي كان غير معترف به من جانبها ، بل أنها رأت أن تكافئ أدواكر فأنعم

عليـه الإمبراطـور البيزنطـي بمرتبـة البطارقـة "٧" . ومـن الجـدير بالـذكر أن أدواكـر رفـض أن يعـين خلفـاً لروميلـوس ظنـاً منـه أن الإمبراطورية لازالت مستمرة في الغرب كما فـي الـشرق بـل أننـا نجـد مناصـرة حقـة لوحـدة الـشطرين مـن جانـب كثيـر مـن زعمـاء الجرمان "٨" . أيا ما كان الأمر ، فإن القبائل الجرمانية التي كانت لا تملك في مواطنها الأولي أرضاً دائمـة –كمـا ذكـر يوليـوس قيـصر- استطاعت أنـت تثبـت أقـدامها فـي غـرب أوروبـا ، وتقـيم دولاً ذات شأن . وهنا يتخذ الصراع شكلاً جديداً بل طريفاً في بعض الأحيـان تلعب فيه الدبلوماسية دوراً ناعماً .

لقد أقام الفرنجة "إحدى القبائل الجرمانية " دولة في فرنـسا ومـا جاورها بزعامة قائدهم كلوفيس الذي كان يرى فـي الإمبراطوريـة الرومانية الشرقية "بيزنطه" بريق المجد والعظمة اللتـان لا يمكـن لأحـد أن يطاولهمـا . وهنـا كـان علـى مفكريـه ورجـال التـاريخ فـي دولته أن يقللوا من شعوره وشعور قومه الفرنجة الأبطال بالدونية فـاخترعوا أسـطورة تؤصـل تـاريخهم ، فـإذا كـان الأبـاطرة الرومـان ينتمون إلى سلفهم الطروادي إينيـاس الـذي يفخـرون أنـه ينتمـي للملـك الطـروادي بريـام فـإن الفرنجـة ينحـدرون مـن الطـرواديين وملـوكهم ، أي أنهـم ينتمـون إلـى حـضارة أعـرق مـن الحـضارة الرومانيـة ذاتهـا ألا وهـي الحـضارة اليونانيـة وبـذلك فـإنهم أولـى بالميراث الروماني ، بيد أن الوقت كما يقول المؤرخ هنريـك فكتينـو لم يكن مناسباً للإدعـاء بـذلك ، فهـو يـرى أن كلـوفيس كـان حاكمـاً مداهناً حاز على رضا الإمبراطور البيزنطي الذي منحه لقب قنـصل "٩" . والحقيقة أن الألقاب والهدايا وزواج الأميرات البيزنطيات كانت من وسـائل الدبلوماسـية البيزنطيـة "١٠" . ولقـد واصـل كلـوفيس مداهنة الإمبراطور البيزنطي بنقش اسـمه علـى عملاتـه اعترافـا منــه بمكانتــه الإمبراطوريــة ، وبــدوره زاد الإمبراطــور مــن خلــع التشريفات الإمبراطورية عليه وعلى سلالته من بعده ، فقـد تلقـوا مراتب الشرف العليا والألقاب الجليلة ، وتم اختيار اثنين من أولئـك الملوك الميـروفنجيين "سـلالة كلـوفيس " أبنـاء بـالتبني مـن قبـل الحاكم البيزنطي ، وهذا الأمر له أكثر من دلالة فهو بشكل أو بـآخر محاولـة لإثبـات أن مـا يـدور فـي الغـرب يـتم برضـا بيزنطـي ، وأن الصراع في تلك المرحلة لم يكن يشكل خطراً على بيزنطه ، أيـضاً إتباع بيزنطة لسياسة حكيمـة رأت مـن خلالهـا اسـتخدام الفرنجـة كمخلب قط في مواجهة القبائل الجرمانية الأخرى في الغـرب ولـو إلـى حـين ، ذلـك أن أبـاطرة القـسم الـشرقي لـم ينـسوا مجـد الإمبراطورية القديم وسعوا إلى استعادة أملاكهـا فـي الغـرب مـن أيدي الجرمان ، وهـو مـا بـدأه الإمبراطـور جـستنيان بالفعـل ، لقـد

سعى سعياً حثيثاً لتحقيق ذلك المطلب فيما عرف تاريخياً بحروب جستنيان الاستردادية ، ونجح بثمن باهظ أن يسترد الكثير من المناطق فاسترد شمال إفريقيا من أيدي الوندال وما حازوه من جزر في البحر المتوسط وسيطر على إيطاليا ومناطق من أسبانيا وفرنسا "١١" . لقد أفلح الرجل في إعادة الكثير من المناطق الرومانية فأصبح البحر المتوسط بحيرة رومانية من جديد "١٢" . غير أن عقد المناطق التي استردها انفرط عقب وفاته بقليل على الرغم مما تكبدته بيزنطه من أموال ، لتعود المشكلة للظهور من جديد ، لكنها كانت أصعب من أن تحل الحرب ، فالممالك الجرمانية في الغرب صارت راسخة الأقدام ، كما أن حروب جستنيان أظهرت صعوبة محاولة تكرار مثلها بما فقدته الإمبراطورية من أموال أفرغت خزانتها بلا طائل يذكر .

بيد أن الإمبراطورية البيزنطية والتي ما فتئت جادة في إظهار قوتها ، وبيان مجدها تجاه الغرب ، وأنها مهابة الجانب تلقت لطمة قوية مع مطلع القرن التاسع الميلادي وجهها باقتدار البابا ليو الثالث عندما وضع التاج الإمبراطوري على رأس أحد أكبر رجال الجرمان شهرة ومهارة حربية في ذلك الوقت وهو شارلمان بما أحرزه من انتصارات مكنت له في الغرب تقريباً . كان التتويج حدثاً تاريخياً مميزاً ، ربما رأى فيه الحضور من نبلاء روما "العاصمة الرومانية القديمة" أن الفرنجة صاروا أكثر نضجاً بما يكفي للفوز بالميراث الإمبراطوري والدخول ضمن الشعب الروماني ، لكنه-أي التتويج- بالنسبة للفرنجة أنفسهم كان إنجازاً لكل الأشياء التي أشارت إليها مقدمة قانونهم الساليSALIAN LAW : أنهم شعب مختار أختارهم الله لحكم أوروبا "١٣" .

ومهما يكن من أمر ، فإن الإمبراطورية البيزنطية فقدت صوابها إزاء ذلك الحدث ، فكيف لجرماني من البرابرة أيا من كان أن يطاول هامة الأباطرة في الجانب الشرقي ، وفي محاولة من جانب بيزنطه لاحتواء الموقف ، طلبت الإمبراطورة إيرين "٧٩٧-٨٠٢م" يد ابنة شارلمان لابنها ، لكن شارلمان صرف النظر عن هذه الفرصة أيا ما كانت قيمتها ، لأنه لا يستطيع تحمل فراق ابنته ، إلا أنه استبدل الأمر فسعى إلى طلب يد الإمبراطورة نفسها ، وساندته البابوية في ذلك فأرسلت بعض رجالها ضمن الوفد الذي أرسله شارلمان ليزينوا لهذا الأمر ، ويمكن أن يعزو موقف البابوية إلى رغبتها في السيطرة على الكنيسة الشرقية فإذا كان رأسا الدولة في قسميها الشرقي والغربي سيوحد بينهما الزواج فلما لا تتحد الكنيستان الشرقية والغربية لتهتبل الفرصة فيما بعد إلا أن شيئاً

لم يتحقق فقد رفضت الإمبراطورة إيرين الزواج تحت ضغط كبار النبلاء في بيزنطة .

فشلت الدبلوماسية هذه المرة إلا أن الجرمان نجحوا . لقد برز من بينهم أخيراً إمبراطورا للغرب كان يسعى إلى إمبراطورية عالمية غير مبال بهيبة وتاريخ بيزنطة ومزاعمها التاريخية ، لكن التاريخ لا يعيد نفسه ، وهذا ما لم يدركه الجانبان البيزنطي والغربي في صرعهما ، ذلك أن ما عرف بالإمبراطورية الكارولنجية التي أقامها شارلمان في الغرب كان شيئاً مختلفاً عما كانت عليه الإمبراطورية الرومانية ، كانت أرضاً واسعة وسكاناً أقل وجسداً سياسياً غير متكامل خضع فيما بعد للإنحلال في ظل ظروف داخلية محضة بعيداً عن أي تأثير بيزنطي .

وجاءت المحاولة الأخيرة لإقامة كيان إمبراطوري في الغرب من قبل حكام المانيا اللذين رغبوا باتحادهم بالقوة في إقامة إمبراطورية ظهرت بالفعل تحت اسم ما عرف بالإمبراطورية الرومانية المقدسة ، وكان ذلك في إطار تحالف بين البابوية ممثلة في البابا حنا الثاني عشر والملكية الألمانية ممثلة في أوتو الأول ، فلقد توج الأخير في ذات المكان الذي توج فيه شارلمان إمبراطورا من قبل ، وذلك في فبراير من عام ٩٦٢م وكان دافع البابوية إلى ذلك العمل هو كسب الحماية الجرمانية في مواجهة أعدائها ، وذلك يمكن من الناحية العملية اعتبار الإمبراطورية الرومانية المقدسة امتدادا لإمبراطورية شارلمان ٨٠٠م "١٤" بل أنها واجهت المصير نفسه الذي واجهته سابقتها .

ومن الجدير بالذكر أن البابوية أرادت أن تكون كلمتها العليا في الغرب الأوروبي فعلى الرغم من استفادتها من القوى الجرمانية وممالكها في الغرب الأوروبي إلا أنها سعت جادة إلى فرض نفوذها على الحكام في الغرب ، وكان على كرسي البابوية رجل عنيد هو البابا جريجوري السابع ، الذي دخل في صراع مع الإمبراطور الألماني هنري الرابع حول التقليد العلماني رافضاً تدخل الحكام في شؤون الكنيسة ومستغلاً سوء الأحوال الداخلية للإمبراطور مما مكنه من الخروج من الصراع منتصراً ، ومع ازدياد النفوذ البابوي في الغرب بدأت البابوية تعمل لتنفيذ سياستها الخارجية وهي السيطرة على الكنيسة الشرقية ، وواتت البابوية الفرصة عندما طلب الإمبراطور البيزنطي الكسيوس كومنينوس العون العسكري من البابوية لمواجهة المد السلجوقي الإسلامي فأطلقت الدعوة لشن حرب صليبية وأفرزت الأحداث التي نجمت

عن الحروب الصليبية عداء بين الجانبين البيزنطي والصليبي وانتهى الأمر بشن حملة صليبية ضد بيزنطة نفسها وهي الحملة الصليبية الرابعة ١٢٠٤م "١٥" .

لقد سارت الأحداث في اتجاه مخالف ، لقد دارت الدوائر بالإمبراطورية البيزنطية ، وفيما يشبه الدراما التاريخية فقدت عرشها الإمبراطوري . لقد تمزقت الإمبراطورية البيزنطية بين ناهبيها من أبناء الغرب الأوروبي وبدلاً من مد يد العون لبيزنطة مدت اليد إلى تاجها الإمبراطوري ليعتمره رجل من الغرب معلناً نفسه إمبراطوراً لاتينياً غربياً في قلب العاصمة الشرقية بيزنطة ، ليتلاشى الحلم في إعادة المجد الروماني ، وعلى الرغم من تمكن البيزنطيين من الخلاص من الغاصبين وإعادة الإمبراطورية البيزنطية مرة أخرى إلى الوجود ، إلا أنها كانت أضعف من أن تبقى طويلاً ، لقد عصفت بها الأحداث لتتوه في دروبها بعيداً عن العظمة الإمبراطورية والمجد الروماني عام ١٤٥٣م ، لتبدو في الأفق إمبراطورية جديدة تدخل القسطنطينية هي الإمبراطورية العثمانية .

الهوامش :

"١" كان مصطلح "بيزنطي" من اختراع الباحثين الفرنسيين ، فقد أطلق أبناء الإمبراطورية البيزنطية على أنفسهم romaloi أي سكان الإمبراطورية الرومانية . للمزيد أنظر : peter lock , the franks in the aegean,1204-1500,lomdon1995،

"٢" سانت موس : ميلاد العصور الوسطى ،ترجمة عبد العزيز توفيق جاويد ، القاهرة ١٩٩٨م ، ص ٣٢ وما بعدها .

"٣" سعيد عاشور : أوروبا العصور الوسطى ،ج١ ، القاهرة ،١٩٩٧م ٢٧-٢٨

"٤" نفسه ، ص ٣٢-٤٦ وقد ذكر يوساب مؤرخ قسطنطين كيف جلبت علاقاته الخارجية السلام للإمبراطورية . eusebius, the life of consantine,trans.,averill camerong stuart G.hall,oxford 1999,p.156

"٥" كان فالنز قد سمح للقوط الغربيين " أحد القبائل الجرمانية " بعبور الدانوب والإقامة في إقليم موئيسيا وهو الجزء الشمالي الشرقي من بلغاريا الحالية غير أنهم أحسوا بالضيق في هذا الإقليم لكثرة عددهم وتحول الضيق إلى ضجر وبالتالي إلى كراهية مما دفعهم إلى محاربة فالنز

، فيشر ، تاريخ أوروبا العصور الوسطى ، ترجمة محمد مصطفى زياد ، السيد الباز العريني ،ج١، القاهرة الطبعة الخامسة ، ص ٢٢.

"٦" ج.م. هسي ، العالم البيزنطي ، ترجمة د. رأفت عبدالحميد ، القاهرة ١٩٨٤،ط ٣، ص٩٧ ، موس ، المرجع السابق ، ص ٢٧ .

"٧" كان أعلى لقب مباح للجميع إبان قرون عديدة هو لقب بطريق "patrician" وهو مرتبة أنشأها قسطنطين الأكبر وجعلها ذات نطاق محدود جداً .

"٨" فيشر ، المرجع السابق ، ص ٣٤ ، موس ، المرجع السابق ، ص ٣٧-٣٨.

"٩" Heinrich Fichteanau< The Carolingian Empire :The age Of Charlemagne< Trans . PeterMunz, Newyork 1963,pp.3-4

"١٠" رأفت عبدالحميد الإمبراطورية البيزنطية ،ج١، القاهرة ٢٠٠٠ ص ٢٥٣ وما بعدها .

"١١" لم يكن جستنيان هو الفاتح العظيم لتلك المناطق إنما قائدها بليزاريوس ، بل أن بليزاريوس في حملته الثانية على إيطاليا أعطى الإمبراطور وعداً ألا يطلب مالاً أثناء حملته بل سيدفع من ماله الخاص تكاليف المعدات الضرورية . ستفن رنسيمان ، الحضارة البيزنطية ، ترجمة عبدالعزيز توفيق جاويد ، القاهرة ١٩٩٧ ، ٣٢ .

"١٢" رنسيمان ، الحضارة البيزنطية ، ص ٣٢ .

"١٣" H. Fichtenau, op .cit.,24.

"١٤" سعيد عاشور ، المرجع السابق ، ج١ ، ص ٣٠١-٣٠٣ .

"١٥" كانت الحملة الصليبية الرابعة متجهة أساساً لضرب مصر إلا أن البندقية استطاعت أن تحول هذه الحملة لصالحها والتوجه إلى بيزنطة وكانت ضربة قاسية ضد الإمبراطورية البيزنطية . للمزيد النظر ، p.lock , op , cit , p35 .

بداية التاريخ البيزنطي
ونظرية وحدة الإمبراطورية الرومانية

د. فتحي عبد العزيز محمد
أستاذ مساعد تاريخ العصور الوسطي ـ جامعة الباحة

قـد تتعـارض محاولـة تحديـد بدايـة تـاريخ قيـام الإمبراطوريـة البيزنطية عمليا مع النظرية القائلة بوحدة الإمبراطورية الرومانيـة ([١]) ، حيـث لا يمكـن تـصور انقـسامها أو تفككهـا ، تلـك المثاليـة الرومانية التي ظل الأباطرة والشعب الروماني يؤمنون بها حتـى بعـد الـتخلص مـن آخـر أبـاطرة القـسم الغربـي رومولـوس أوغـسطولوس سـنة ٤٧٦م. كمـا أن محاولـة مثـل تلـك مثلـت إشكالية تاريخية حيث تعددت الآراء والأدلة التي طرحها المؤرخون للتدليل علي صحة ما ذهبوا إليه في هـذا الـصدد . غيـر أن الثابـت أن تلك الإمبراطورية البيزنطية ولدت حقيقة من رحم الإمبراطوريـة الرومانية . إلا أنها مرت بفتـرة انتقاليـة قاربـت الثلاثـة قـرون حتـى تبلورت خصائصها المميزة ، ويمكن أن يطلـق عليهـا فتـرة رومانيـة متأخرة أو بيزنطية باكرة . ولا شك أن ذلك يزيد مـن صـعوبة تحديـد الميلاد ، وجدلية البداية . غير أن بعـض الأحـداث التاريخيـة تفـرض نفسها علي حقبة زمنية بعينها لما لها من قيمة وما تتركه من أثر . وهو ما دفع ببعض المؤرخين إلي اتخاذ أحـداث بعينهـا علـي مـدار سنوات طويلة بل ربما قرون لتكون بداية للتاريخ البيزنطي . ونـورد هنا عرضا سريعا لما ذهب إليه أولئك المؤرخون .

كان ضروريا لمواجهة أزمة القرن الثالث ([٢]) التي عانت منهـا الإمبراطوريـة الرومانيـة القيـام بإصـلاحات جذريـة علـي كافـة المستويات وقد تصدي لتلك الأزمة كلا من الإمبراطـور دقلـديانوس (٢٨٤- ٣٠٥) والإمبراطـور قـسطنطين ، وقـام الأول وهـو بـصدد الإصـلاح الإداري بتقـسيم الإمبراطوريـة إلـي قـسمين شـرقي وغربـي يحكـم فـي كـل منهمـا إمبراطـور . وهـو مـا يعنـي تواجـد إمبراطوران في وقت واحد أحدهما في القسم الـشرقي والثـاني في القسم الغربي ، بـل زاد علـي ذلـك بـأن جعـل لكـل إمبراطـور قيصرا يساعده ويكـون خلفـا لـه حـال وفاتـه ليـضمن بـذلك انتقـال السلطة في سلام بدلا من تلك الفوضى التي كانـت تحـدثها فـرق الجيش متدخلة في اختيار الإمبراطور . وقد تحـول الحكـم الثنـائي بعد قليل إلي ما عرف بالحكومـة الرباعيـة Tetrarchs ([٣]) . **فـي ظل إمبراطورية واحدة إيمانا بنظرية الإمبراطورية الموحدة .**

ولم يكن يعني ما قام به الإمبراطور دقلديانوس ـ كما افترض بعض المؤرخين ـ ظهور إمبراطورية جديدة علي أي من الجانبين .إن ما قام به دقلديانوس لم يكن إلا مقاربة منه لحل المشكلة الخاصة بالعرش الإمبراطوري ، وليست عملية تقسيم يتم فيها الفصل نهائيا بين قسمي الإمبراطورية . ويلاحظ في تلك الفترة تعدد العواصم حيث لم يعد مناسبا للسيطرة علي إمبراطورية مترامية الأطراف بمساحاتها الواسعة وأعدائها الكثر أن تحكم من مركز وحيد ـ أي روما ـ التي لم تعد مناسبة لمثل ذلك الدور فقد توقفت عن كونها مدينة مؤثرة سياسيا .

هوت الحكومة الرباعية بعد تقاعد دقلديانوس عام ٣٠٥ في أتون حرب أهلية تمكن قنسطنطين من الخروج منها منتصرا. وعادت الإمبراطورية الرومانية عام٣٢٤ مرة أخري تحت إمرة حاكم وحيد ([٤]) والذي أخذ يدير شئونها من عاصمة جديدة شيدها عند شواطئ البوسفور عام ٣٣٠ وهي التي أراد لها أن تحمل اسم روما الجديدة ، بديلا عن العاصمة التاريخية روما إلا أنها عرفت باسمه .

ويري البعض أن اتخاذ القسطنطينية مقرا للحكم هو نقطة البداية في التحول التدريجي من إمبراطورية روما الوثنية إلي ما عرف بالإمبراطورية البيزنطية ، وهو خير بداية للتاريخ البيزنطي وإن كان إنشاء تلك المدينة يأتي في إطار الإصلاحات التي بدأت لمواجهة أزمة القرن الثالث ([٥]) . بيد أن الإمبراطورية البيزنطية التي تعود أصولها إلي الإمبراطورية الرومانية المتأخرة ظلت في أعين المعاصرين رومانية علي الأقل حتى القرن الثاني عشر وكان قاطنوها يدعونها إمبراطورية الرومان The empire of Romans خاصة في الفترة المبكرة.وبذل الأباطرة جهودا مكثفة للإبقاء علي استمرارية الإمبراطورية ([٦]).

كما أن ظاهرة تغيير العواصم ظلت مستمرة بعد قنسطنطين الذي سرعان ما اكتشف خلفاؤه أن الإمبراطورية أكبر من أن تحكم من قبل فرد واحد ومن مقر واحد أيضا . وكان من الطبيعي قيام حكم جماعي بين أباطرة تربطهم وشائج القربى هم أبناء قنسطنطين نفسه الذي قسم الإمبراطورية مرة ثانية بين أفراد عائلته وهو علي فراش الموت ، وهم قنسطنطين الثاني وقسطنطيوس و قنسطانز وذلك عام ٣٣٧ ([٧]) . واتخذت إلي جانب القسطنطينية مدنا أخري مقارا مثل تريفي وسالونيك

وأنطاكية رغم بعد المسافة بينهم ([٨]) . إن ما قام به خلفاء قنسطنطين لا يعني الإقلال من قيمة القسطنطينية ، إنما قد يعني تجاوب الحكام مع متطلبات فرضتها متغيرات خارجية تمثلت في حروب عدة علي أكثر من جبهة .

ولا ريب أن فكرة وحدة الإمبراطورية كانت الهاجس الملح علي أباطرة تلك الفترة علي الرغم من تركهم العاصمة القديمة روما . وكان ثيودوسيوس آخر إمبراطور حكم الإمبراطورية بأكملها بمفرده ([٩]) وعلي الرغم من حرصه علي وحدة الإمبراطورية طوال فترة حكمه ، إلا أنه قسمها وهو علي فراش الموت عام ٣٩٥م بين ولديه هونوريوس وأركاديوس ، حيث كان القسم الغربي من نصيب الأول بينما جاء القسم الشرقي من نصيب الأخير ([١٠]) . لقد قسمت الإمبراطورية في وقت خطر للغاية ساده عدم الاستقرار الذي سببه الغزو الجرماني بقيادة آلاريك وجنده ، وقوميات القوط الشرقيون المتجولون بينما جيوش الإمبراطورية تعاني من ضعف شديد وبدلا من تعاون الحكومتين في القسم الشرقي والغربي ذلك التعاون الذي كانت الحاجة ماسة إليه نري ما يشبه الحرب الباردة بينهما إن جاز التعبير ([١١]) . وهناك من يري في ذلك التقسيم الذي أتي به ثيودوسيوس بداية للتاريخ البيزنطي ، إلا أن حقيقة الأمر كانت لا تشي بذلك فالقرارات التي كانت تصدر في أحد القسمين تطبق ويعمل بها في القسم الآخر ، غير أنه يمكن القول أن ذلك التقسيم كرس ـ علي المدى البعيد ـ الانقسام بين الجانبين .

وإذا كانت نظرية الإمبراطورية الموحدة باقية حتى عام ٤٧٦ ، فإن ذلك العام نفسه يمكن أن يكون نهاية لها في نظر بعض المؤرخين ، حيث شهد القسم الغربي زوال الحكم الإمبراطوري علي يد القائد الجرماني أوداكر بعزله للإمبراطور رومولوس أوغسطولوس في روما ، وبالتالي يمكن القول ـ في رأيهم ـ ببداية الإمبراطورية الرومانية الشرقية أي بداية التاريخ البيزنطي في ذلك العام ([١٢]).

لكن ما قام به الإمبراطور زينون دل علي تمسك أباطرة القسم الشرقي بوحدة الإمبراطورية ، ذلك أنه أغري زعيم القوط الشرقيين ثيودريك علي غزو إيطاليا ومحاربة أدواكر والحفاظ علي العرش الإمبراطوري حتى مجيئه ([١٣]) . غير أنه مع اقتراب القرن الخامس من نهايته كانت الإمبراطورية في قسمها الغربي

تتعرض لمزيد من التفتت حيث التهم الجرمان معظم المناطق وأقاموا علي أشلائها عددا من الممالك .

ويبدو أن ما فعله جستنيان من محاولة استرجاع الغرب الأوربي إلي حظيرة الإمبراطورية الموحدة كان آخر محاولة لرأب الصدع ووحدة الإمبراطورية . لقد خاض ذلك الإمبراطور حربا استردادية شرسة مع قوي الجرمان في الغرب ، ويمكن النظر إلي تلك الحرب في ضوء نظرية وحدة الإمبراطورية . لقد تراخي الأباطرة السابقون عليه وتكاسلوا ـ حسبما رأي جستنيان ـ واكتفوا بما لهم من سيطرة اسمية علي أقاليم افترسها أولئك الجرمان ، وافترض هؤلاء الأباطرة أن الغرب لم يضع وإنما هو خارج السيطرة مؤقتا ([١٤])، ولعل تقاعسهم هذا هو الذي قاد إلي ما قاد إليه من اتساع الفجوة بين شطري الإمبراطورية ([١٥]) ، لذا رأي من الضروري فرض هيمنته بالقوة علي ما يعد حقا لم يضع بعد . ولقد بذل جستنيان كل ما في وسعه في سبيل استرجاع أقاليم الغرب من جديد لسلطان الإمبراطور الروماني الشرقي ، وبهذا فإنه كان يعمل من أجل تحقيق المثالية الرومانية التي تعني إمبراطورية رومانية واحدة ([١٦]) . وأنه لا انقسام بين شطري الإمبراطورية .

لقد كلفت تلك المثالية الرومانية الخزانة الإمبراطورية أموالا طائلة ،حيث شن حربا علي شمال إفريقيا لاسترجاعها من الوندال عام ٥٣٤ ، وإيطاليا من القوط الشرقيين عام ٥٥٢ ، واسبانيا غير أن الخطة كانت أكثر طموحا من أن تهيئ مناخا مناسبا لنجاح دائم . وأمكن للإمبراطور جستنيان أن يستعيد الكثير من أقاليم الغرب ، غير أن المحصلة النهائية أظهرت خطأ سياساته علي الرغم من اقترابه من تحقيق أهدافه .

وأيا ما كان الأمر ، فإن فكرة وحدة الإمبراطورية ظلت قائمة حتى عام ٨٠٠ ميلادية ، وهو العام الذي توج فيه شارلمان إمبراطورا علي يد البابوية في روما ، والذي يري فيه البعض بداية للتاريخ البيزنطي ، حيث ظهر إمبراطور في الغرب ـ أي شارلمان ـ لكن بيزنطة لم تر فيه سوي جرماني لا تطاول هامته هامة الأباطرة الرومان . وهذه النظرة الاستعلائية لم تكن لتلفت انتباه المؤرخ اينهارد كاتب سيرة شارلمان حيث أنصب اهتمامه علي الشك الذي أخذ يساور الإغريق (أباطرة القسم الشرقي) في أنه ـ أي شارلمان ـ يخطط لانتزاع الإمبراطورية منهم عندما لقب إمبراطورا([١٧]) . ويعني ذلك أن أباطرة القسم الشرقي رغم طول الأمد كانوا يؤمنون بوحدة الإمبراطورية ، وأن ما فعله البابا

وقبل به شارلمان هو اغتصاب مرفوض لحق تاريخي . وتأكيدا لحق الإمبراطور في القسطنطينية في الميراث الروماني فإنه أطلق علي نفسه لقب Basileus Rhomaion **أي إمبراطور الرومان** ([١٨])، **إلا أن البابوية كانت قطعت كل ما كان يربطها بإمبراطور القسطنطينية** (**الإمبراطورية البيزنطية**)، **ولم تعد تعترف سوي بإمبراطور واحد في الغرب هو شارلمان** ([١٩]).

وتجدر الإشارة إلي أن هناك من حدد تواريخ أخري تصلح لبداية الدولة البيزنطية ، مثل سنة اعتلاء قنسطنطين أو ليو الثالث للعرش ، وأيا كانت المبررات والبراهين التي ساقها الجميع ، فهي مبررات لها وجاهتها واحترامها ، فكلها اجتهادات ورؤى تقوم علي دراسة جادة . بيد أنها لا تأخذ في الاعتبار نظرية وحدة الإمبراطورية التي تمثلتها عقول أباطرة القسم الشرقي دوما ، ولعل ما حدث للقسم الغربي من تمزق في حقبة تالية جعل حكام القسطنطينية يتغاضون عن تلك النظرية ، إلا أننا نواجه عندئذ جدلية بداية التاريخ البيزنطي بشكل مجرد ، ولا ريب أن ما ذهب إليه رنسيمان هو أنسب التواريخ التي تصلح في هذا الصدد ذلك أن تدشين القسطنطينية يعد بالفعل بداية حقبة جديدة ، وأثبتت تلك المدينة بحصانة موقعها ، وتمركزها في عالم الثقافة الإغريقية ، واحتضانها للأرثوذكسية أن سقوطها عام ١٤٥٣ هو نهاية لإمبراطورية فلما لا يكون قيامها هو بداية لتلك الإمبراطورية .

[١] – قسمت الإمبراطورية بين ولدي ثيودوسيوس الأول وظلت كذلك حتى حروب جستنيان الاستردادية في الغرب ، ذلك أن فكرة وحدة الإمبراطورية ظلت ماثلة في عقول الجميع إلا أنه من الناحية العملية كان هناك قسمين علي كل منهما أن يواجه قدره بنفسه . للمزيد أنظر : J.A.S. Evans , The Age of Justinian., p21

[٢] – انفرد القرن الثالث بكثير من المشاكل والتي كانت في حقيقتها تراكمات لمشاكل سابقة طفت علي السطح في ذلك القرن وقد أثرت تلك المشاكل علي كل من الإجزاء الشرقية والغربية من الإمبراطورية ، وإن كانت أكثر حدة في الغرب ومن بين تلك المشاكل الغزوات الجرمانية المستمرة ومشكلة الصراع حول المنصب الإمبراطوري وتدخل الجيش في اختيار الأباطرة أيضا تدهور النظام المالي بسبب اددني العائدات وانخفاض قيمة العملة بشكل متكرر وحدوث تضخم كبير في الاقتصاد إلي جانب أزمات أخلاقية ودينية ،للمزيد انظر :

[٣] – Stephen Williams and Gerard Friell, The Rome that did not fall, London 2005, p.16.

[٤] – Stephen Williams and Gerard Friel, Op.Cit.,p.17.

[٥] ـ ستيفن رنسيمان : الحضارة البيزنطية ، ترجمة عبد العزيز توفيق جاويد ، سلسلة الألف كتاب الثاني رقم ٢٨١ ، الطبعة الثانية ، القاهرة ١٩٩٧ ، ص ٦ .

[٦] - Angelikie Laiou, Political History An out Line, published by Dumbarton Oaks collection no.39,USA2002 p.9 & Research Library

[٧] - حدث نزاع بين الإخوة الثلاثة قتل خلاله قسطنطين الثاني عام ٣٤٠ ثم قسطانز عام ٣٥٠ للمزيد انظر ، حسنين محمد ربيع : دراسات في تاريخ الدولة البيزنطية ، ص ٣٨. وفيما يخص التقسيم فقد كان العرب : إيطاليا وغالية وإسبانيا وقسما من إفريقيا من نصيب قسطنطين الثاني ، أما قسطنطيوس فكان نصيبه الشرق بأكمله ، بينما حكم قسطانز الليريه وقسما من إفريقيا وطمع قنسطنطين الثاني في ملك قنسطانز فحاربه لكنه قتل في أكويلييه سنة ٣٤٠ بينما تمر الجند علي قنسطانز فقتلوه بعد عشر سنوات من مقتل أخيه ، وصار قسطنطيوس الحاكم الأوحد للإمبراطورية . أنظر : أسد رستم ، الروم في سياستهم وحضارتهم ودينهم وثقافتهم وصلاتهم بالعرب ،ج ١، بيروت ١٩٥٥، ص ٧٩.

[٨] – Stephen William and Gerard , Op. Cit.,p.17 . , Angelikie Laiou , Political hist.,p.9.

[٩] – H. Moss , for a.d330 to the fourth crusade , in Byzantium an Introduction to East Roman Civilization ,ed by Norman h. baynes & h.Moss Oxford 1953 .

كان ثيودسيوس حريصا علي وحدة الإمبراطورية الرومانية ، وقد تخلص من آخر شركائه في الحكم وهو أوجانيوس سنة ٣٩٤ ليصبح حاكما وحيدا للإمبراطورية لمدة عام واحد حيث توفي في العام التالي ، أنظر: أسد رستم : الروم ، ج ١ ، ط بيروت ١٩٥٥ ، ص ١٠٤

[١٠] - محمد مرسي الشيخ : تاريخ الدولة البيزنطية ، حسنين محمد ربيع : المرجع السابق ، ص ٤٥

[١١]- Stephen Williams , Op.Cit. p.18

[١٢] – محمد مؤنس عوض : الإمبراطورية البيزنطية ، دراسة في تاريخ الأسرات الحاكمة ، دار عين للطباعة ، القاهرة ٢٠٠٧، ص١٢٦.

[١٣] – حسنين محمد ربيع : المرجع السابق ، ص ٤٤.

[١٤] – John Haldon , Byzantium at War , NewYork 2003, p.13 .

[١٥] – اسمت غنيم : إمبراطورية جستنيان ، دار المجمع العلمي ، جده ١٩٧٧، ص ٨٥ .

[١٦] – اسمت غنيم المرجع السابق ص ٢٥

[١٧] – اينهارد : سيرة شارلمان ، ترجمة وتقديم وتعليق د . عادل زيتون ، دمشق ١٩٨٩، ص ١٠٨ .

[١٨] – Wilhelm Ensslin, The Emperor and Iperial Administration, pp268- 308 , in Byzantium An introduction to East Roman Civilization , ed., Norman Baynes & h.St.L.b. Moss , Oxford 1953, p.307.

[١٩] – محمد محمد مرسي الشيخ : دولة الفرنجة وعلاقتها بالأمويين في الأندلس حتي أواخر القرن العاشر الميلادي (٧٥٥ – ٩٧٦) ، الإسكندرية ١٩٨١ ، ص ٢٢ .

الحملة الصليبية الأولي والطريق إلي القدس
حملة العامــــــــــة أو الجياع

د . فتحي عبد العزيز محمد

" لقد كان الجوع الذي عض بأنيابه
معظم أنحاء الغرب الأوربي وراء
خروج الأعداد الغفيرة من الفلاحين
والمعدمين خلف قادة العصابات التي
شكلت ماعرف باسم الحملة الشعبية
أو ما يمكن تسميته بحملة الجياع في
أول خروج صليبي "

شهد القرن الحادي عشر للميلاد عند اقترابه من نهايته بداية ما عرف بالحملات الصليبية ، وما سمي في مجملة بالحركة الصليبية .،وتحديدا في الشهر قبل الأخير من عام ١٠٩٥م . ففي يوم الثلاثاء ٢٧نوفمبر من ذلك العام صعد البابا أوربان الثاني منصة في حقل خارج أسوار كليرمونت في فرنسا ، وأعلن أمام حشد كثيف حربا مقدسة علي المسلمين . لتبدأ حرب تتالت علي شكل موجات باتجاه الشرق الإسلامي ، استمرت في طورها النشط قرابة قرنين من الزمان .

ولسنا هنا في معرض الحديث عن دوافع البابا أوربان للزج بالغرب الأوربي في تلك الحرب ، وبصورة بدت فوضوية في غالب الأحوال . ولكننا نحاول تلمس ضرورة تلك الحرب وخاصة الصليبية الأولي في صورتها الشعبية (أي ما عرف بحملة العامة) . أن ما أعلنه البابا أمام الجموع والذي انتقل بدوره إلي من لم يشهد ذلك اللقاء، كان له بريقه الخاص عند العامة والخاصة من أبناء غرب أوربا الذين كانوا يعانون حالة من الجوع : الجوع إلي امتلاك الأرض ، أو الجوع بمعناه الحقيقي لسوء الوضع الاقتصادي في أرجاء أوربا الغربية في تلك الحقبة وخاصة فرنسا.

ذكر أوربان أن أرض الشرق تفيض عسلا ولبنا ، فسال لعاب الجياع .ولتبدو الحرب مبررة ومقدسة فإنه دعي إلي ضرورة إنقاذ مسيحي الشرق من ظلم

المسلمين ، وتأمين مسيرة الحجاج اللاتين القادمين من الغرب ، ومساندة الإمبراطورية البيزنطية ، وتحرير الأرض المقدسة - وهي الهدف الأول للصليبية - من أيدي الوثنيين علي حد قوله .

أن أية حرب لها مبررات تجعل شنها ضرورة ولا مندوحة من خوضها . غير أنه يمكننا القول أن إطلاق الصليبية الأولي لم يكن له ما يبرره ، ولم يكن أمامها الكثير من المهام لتقوم بها في الشرق ، ولم تكن جهودها مطلوبة سواء من المسيحيين المحليين ، أو من الحجاج اللاتين ، ولم يطلب مسيحيو الشرق عونا من مسيحيي الغرب (إخوان الدم كما أطلقوا علي أنفسهم فيما بعد وهو تعبير يبرر به الصليبيون سبب نهضتهم لإنقاذهم) . والواقع أنه لم تكن هناك مصالح حقيقية بين مسيحي الشرق ومسيحي الغرب . كذلك فإن الإمبراطورية البيزنطية لم تكن في حاجة لمثل ذلك العون زمن الصليبية الأولي . فالسلاجقة المفككة قواهم - وهم من كانوا يمثلون خطرا علي بيزنطة منذ بضع سنين - كان يمكن للإمبراطور البيزنطي بحملات محدودة التخلص منهم ([١]) .

وتجدر الإشارة هنا إلي أن مصطلح الأرض المقدسة كان اختراعا صليبيا . بمعني أن فلسطين لم تعد في نظر الصليبيين أرض الميعاد ، وصارت مقدسة لأنها شهدت مولد عيسي عليه السلام وحياته .

ويري المؤرخ توماس ماستنك أن ذلك يعني أن جريمة المسلمين المحددة والتي توجه من أجلها الصليبيون لقتلهم هي امتلاكهم - الغير شرعي من وجهة نظر الصليبيين - للأماكن المقدسة للمسيحيين في بيت المقدس. لقد كانت الصليبية غزوا استفزازيا وراء حدود العالم الغربي المسيحي من أجل الأرض المقدسة والسيطرة عليها .

ومهما يكن من أمر ، فإن البابا وببلاغة متناهية طالب مستمعيه بالذهاب إلي الشرق من أجل تلك المهام المقدسة . وكانت خطبته درامية الشكل فقد ركز طويلا

علـي ضـرورة تحريـر القـدس ؟!! والتـي تبعـد عـن موقـع خطابـه فـي كليرمونـت بمـسافة٤٠٠٠كـم ، مدينـة بعيـدة غريبة عـن مـستمعيه ، ومنـاخ سـيجدونه شـاقا ، ويعـيش عليها أناس مختلفون في العقيدة لا يقبلون بحلول وسط .
ومما يثير الدهشة ، أن البابا لم يحدد أمام تلـك الجمـوع قائدا يتولي أمـرهم . فلـم يكـن هنـاك ـ كمـا يـري المـؤرخ المحدث جون فرانس([٢]) ـ قائـدا عظيمـا ذا قـوة تمكنـه من إدارة الحرب نيابة عن البابوية . وكل ما فعله هو تعيـين الراهـب أدهيمـار أسـقف بـوي منـدوبا بابويـا يمثـل قيـادة روحية لفرق حربية متعددة القيادات . بل الأكثر غرابـة هـو أن البابا لم يقدم مالا لأولئـك الـذين أعـدوا العـدة للـذهاب . ولعله اكتفي بـأن يكـون جـزاء مـن يمـوت مـنهم الغفـران ، ومن يحيا الغنائم والأسلاب في أرض العسل واللبن .

ولاشك أن هذا الأمر غاية فـي الخطـورة ، فـالحرب فـي العصور الوسطي لم تكن عملا سهلا . بل أن أكبـر الملـوك في ذلك الوقت كانوا يجدون صعوبة بالغة في توفير موارد مـن أجـل حـروبهم المحـدودة داخـل القـارة الأوروبيـة . أن المسافة والجغرافية والمناخ تجعل ذلك الغزو عملا معقـدا وعرضه للإجهاض . ولكن البابا أعلنهـا والجمـوع قبلـت بهـا مدعيـة فـي صـرختها التـي أجابـت بهـا البابـا عنـد انتهـاء خطابه " الرب يريدها ". وكان الملتقي هـو القـسطنطينية حيث ينطلقون إلي قتل المسلمين .

وبدأ الخروج شرقا ، فبعـد انتهـاء المجمـع والخطـاب عـاد الجميع من حيث جاءوا . وانتشرت شـهرة الذي حـدث وبلـغ كل الأرجاء ،وشمل أيـضا الـذين كـانوا فـي الجـزر النائيـة ، بفـضل الـدعاة الجوالـون وخطابـات ورسـل البابـا . و مـع الدعاة الجوالون خرج العامة دون أدني إعداد ودون انتظـار للجيـوش المنتظمـة تحـت قيـادة النـبلاء والأمـراء (حملـة النـبلاء). ويبـدو أن ذلـك الخـروج الـسريع ، وبمثـل تلـك الحشود كان غير متوقعا من الكنيسة نفسها .

لقد فهم العامة دعوة البابا أوربان أنها فرصـة لمـستقبل أفضل في الشرق ، فـإن لـم تطـأه أقـدامهم وقتلـوا دونـه ففـي ذلـك خـلاص لأرواحهـم فـي الآخـرة . لقـد امتزجـت

لديهم الأمور الدنيوية بالأمور الدينية ، فعلي الرغم من الأحلام التي راودتهم في الثراء والنعيم ، فإنهم بعكس رجال الكنيسة والأمراء الذين يفضلون مصالحهم الشخصية ـ كانوا أكثر تدينا لكنه كان تدينا ممزوجا بالتعصب المقيت . لقد كانوا يعتبرون أنفسهم أصفياء الرب لأنهم الفقراء . إن هذا المظهر الديني العاطفي الذي تميزت به حملة الجياع هو الذي ربط بين جموع المشاركين فيما يشبه أخوة الفقر . لقد خلطوا بين التدين العاطفي المتعصب وأوضاعهم المعيشية التعسة في ظل نظام إقطاعي يشهر علي رقابهم سيوف القهر والظلم . وفي ضوء ذلك يمكننا أدراك حقيقة استجابتهم وأيضا مسلكهم فيما ارتكبوا من أعمال وما اقترفوا من جرائم طوال رحلتهم إلي الشرق ([٣]) .

بدأ العامة يتجمعون خلف الدعاة والمبشرين بالحرب ، ومن أشهر هؤلاء الدعاة الذين تجمع خلفهم الفقراء والمحرومون وقطاع الطرق كان بطرس الناسك ، وهو راهب في دير أميان ، هجر الدير بتكليف من البابا لكي يقوم بالدعوة إلي الحملة الصليبية ([٤]) .

. ويذكر لنا المؤرخ جيوبرت النوجنتي جانبا من دور بطرس في التبشير بالصليبية " كان بطرس من مدينة أميان وكان ناسكا يرتدي مسوح الرهبان . كان يجوب أنحاء المدن والريف .. التفت حوله جموع كبيرة من الناس .. كانت الشعيرات تنتزع من حماره علي سبيل التبرك .. كان يرتدي قميصا من الصوف وفوقه عباءة بلا أكمام تصل إلي عقبيه ، وذراعاه عاريتان وقدماه حافيتان .([٥])" صورة واضحة لرجل شعر العامة بسذاجة أنه مقدس ، وحتى حماره كان مباركا . لقد كانت صورته تلك إلي جانب فصاحته ذات تأثير خطير علي العامة والدهماء في غرب أوربا . فعند رؤيتهم له وسماعهم إياه تغمرهم فورة من الحماسة ، فيستجيبون له في سرعة غريبة ([٦]) لقد بدا الكل يتبعه ،عامة الناس الأطهار منهم والأخيار ، الزناة ، والقتلة، واللصوص والنصابون ، وقطاع الطرق .. فضلا عن النساء وأولئك الذين مستهم روح التوبة كما يورد المؤرخ البرت الآيكسي ([٧]) .

ولا يغيب عن البال أن المشروع الصليبي بهذه الصورة عمل فوضوي ، فلا تنظيم أو إعداد ، بل أناس يتطوعون من أجل حرب دعوا إليها ، والداعي ـ أي البابوية ـ ليست لديه أدني فرصة لتنظيم التحرك تنظيما جديا ، أو حتى جعلهم ينتظرون حملة الأمراء التي ما تزال ترتب أمور خروجها . فالزحف شرقا هو غاية تلك الجموع . وقد أمكن لبطرس أن يجمع خلفه حوالي خمسة عشر ألفا اصطحب بعضهم نساءهم وأطفالهم ([٨]) .

كانت جماعات العامة والفلاحين التي تجمعت حول بطرس الناسك أكبر من أن تستطيع أي مدينة أو قرية في غرب أوربا أن تعولها .
وهكذا تحركت في ربيع سنة ١٠٩٦ طلائع الفلاحين التي سبقت حملة الفرسان الصليبية الكبري ... وتزايدت أعداد الجماعات المتجهة صوب حوض الراين ، حيث صارت فرقا وجيوشا. واختار البعض لأنفسهم قادة من بين نظرائهم . علي حين انضوي البعض الآخر تحت لواء أحد الفرسان ، أو أحد أبناء العائلات النبيلة وتحرك البعض دونما قيادة . وقد حدث أن سارت بعض المجموعات وراء إوزة أو ماعز ربما لأنها ملهمة بقوي غيبية ([٩]) .

كانت أول فرقة من حملات الجياع تلك التي قادها فارس شرس نبيل المولد من بلدة بواسي هو والتر المفلس الذي قاد جماعة غير متكافئة من اثني عشر ألفا يتحركون خلفه بدافع الإيمان والجوع ([١٠]) ولم يكن في جيشه سوي ثمانية فرسان .

كان الألمان يسخرون من المشاركين مع والتر المفلس ، لكنهم عندما رأوا جموع أتباع والتر تعبر أراضيهم في طريقها إلي حوض الراين ثم البلقان ، غيروا من رأيهم وكفوا عن السخرية ، وأخذوا ينضمون إلي جماعته تحدوهم نفس الآمال والمطامع في الفوز بما في الشرق من خيرات .
لم تواجه الحملة سوي متاعب قليلة في نهاية رحلتها عبر البلقان ، ولكن أعمال النهب والسلب التي بدأ إتباع والتر يمارسونها في بلغاريا جعلت البلغار يهاجمونهم

ويقتلون منهم الكثيرين . وقد لاذ الناجون بالغابات عدة أيام حتى وصلوا في نهاية الأمر تحت أسوار القسطنطينية . وهناك أمر الإمبراطور البيزنطي الكسيوس كومنين أن يعسكروا خارج المدينة في انتظار وصول جيش بطرس الناسك.

كان بطرس قد غادر كولونيا في ابريل سنة ١٠٩٦ تتبعه جموع غفيرة مخترقا ألمانيا وهنغاريا ، وعند الحدود ما بين هنغاريا والدولة البيزنطية وبالتحديد عند بلدة سملين الهنغارية ارتكب أتباع بطرس مذبحة بشعة بسبب الحصول علي الميرة اللازمة لهم . راح ضحية تلك المجزرة أربعة آلاف من أهل سملين المسيحيين ، إنه الجوع وليس الإيمان . ولا شك في أن هذه الجريمة الشنعاء كان لها آثارها في إثارة ريبة البيزنطيين وتشككهم في تلك الجموع التي أتت إلي الشرق باسم الدين لتقتل بلا رحمة إخوان لهم في الدين . لذلك عمل الإمبراطور علي تخليص بلاده من شرهم بأسرع وقت . وعهد إلي بعض رجاله بقيادتهم إلي العاصمة غير أن أتباع بطرس واصلوا أعمال النهب والسلب بكل ما أوتوا من قوة حتى وصلوا إلي أسوار القسطنطينية ([١١]) .

ومهما يكن من أمر ، فإن الإمبراطور استدعي بطرس لمقابلته ، وكان يظن أنه سيقابل قائدا له قدره ، لكنه علي أية حال ، أحسن استقباله ، ولأنه أدرك أن تلك الجموع الهائجة الجائعة لن تصمد أمام قوات المسلمين الذين انتصروا علي جيش الإمبراطورية المدرب والمنظم ، فإنه قدم له ولأتباعه النصح بألا يتعجلوا في العبور إلي آسيا الصغرى حيث الأتراك والمعركة الحقيقية . وطلب منهم الانتظار حتى مقدم القوات النظامية . ولدينا رواية للمؤرخة آنا كومننا ـ ابنة الإمبراطور الكسيوس ـ في هذا الصدد " نصحه ـ أي الإمبراطور ـ أن ينتظر وصول بقية الأمراء ، لكنه لم يتقبل النصح ، واغتر بأعداد أتباعه ([١٢]) ".

وتجدر الإشارة إلي أن الإمبراطور أحس بخيبة أمل لرؤيته تلك الجموع من العامة الذين جاءوا لمساعدته .إن

كان قد طلب المساعدة من الأساس ، حيث هناك شك حول الرسالة التي أعلنت البابوية أنها تلقتها من الإمبراطور البيزنطي لطلب العون كما فند ذلك المؤرخ رأفت عبد الحميد ([١٣]). ودفعه ما علم من أمرهم في السلب والنهب إلي التخلص منهم ، لذا وافق بطرس وسمح له ولكل الصليبيين بعبور البسفور إلي الشاطئ الآسيوي، لتقترب رحلة أولئك الجياع من نهايتها . ولها قصة تبدو طريفة إن دلت فإنما تدل علي إدراك الأتراك لطبيعة العدو القادم من الغرب بشكل جيد .

لقد أدرك الأتراك حب القادمين للمال وجشعهم من أجل الثراء ، فاختار القائد التركي في منطقة نيقية اثنين من رجاله من ذوي المهارة والبراعة ، وبعث بهما إلي معسكر بطرس ، وأمرهما أن يعلنا هناك بأن النورمان ـ وهم جماعة كانت انضمت إلي بطرس ثم انفصلت عنه نتيجة ما أحرزت من مغانم في المنطقة ـ قد استولوا علي نيقية وأنهم يقومون بتوزيع غنائم المدينة فيما بينهم ، وكان لهذه الحكاية فعل السحر علي رجال بطرس الذين ما إن سمعوا توزيع ومال حتى هاجوا وماجوا وتسارعوا لتوهم مندفعين دون توقف في اتجاه طريق نيقية وهم في حالة فوضي كاملة ، ودونما أدني مراعاة للنظام العسكري ، كانوا ينطلقون في فوضي شاملة ، ووقعوا علي مقربة من موقع اسمه دراكون في كمين للتركمان فذبحوا بكل تعاسة وشقاء كما تذكر آنا كومننا .

ولقد أمكن لبطرس الناسك النجاة من تلك المذبحة بينما قتل والتر المفلس. وكان علي الأتراك مطاردة بطرس لكن الإمبراطور تدخل لإنقاذه .
تلك هي نهاية حملة العامة أو حملة الجياع . ماتوا قبل أن يصل أي منهم إلي القدس . وكل ما أمكنهم الاستيلاء عليه والفوز به حفنة من رمال قبضوا عليها وهم يلفظون أنفاسهم الأخيرة علي أول الطريق في أرض الشرق .

لقد كان مصيرا محتوما لقيه هؤلاء الجياع ، نتيجة تعجلهم وقلة صبرهم ورغبتهم الجامحة في تغيير حياتهم ، والخلاص مما يعانون من بؤس وضنك . فلا هم انتظروا

خـروج حملـة الأمـراء المنظمـة ولا اسـتمعوا إلـي نـصح الإمبراطور البيزنطي .

ويمكننـا القـول أن البابويـة هـي المـسئول الأول عمـا آل إليه حال أولئك الفقراء ، لقد أطمعـتهم بمـا ينتظـرهم فـي أرض الشرق من خيرات ، وهم الذين يحيـون حيـاة بائـسة متردية . كما أن البابوية لم تشرف علي تنظيمهم أو حتـى تـوفير مـا يلـزم مـن عتـاد ومـؤن لهـم ، إلـي جانـب انعـدام الخبرة القتالية لدي المشاركين في تلك الحملة . . وبينمـا حاول المؤرخون المعاصرون إلقاء اللـوم علـي المـشاركين في الحملة وتسرعهم في الخروج إلي الشرق فإننـا نـري أن الشكل الـذي خرجـت بـه تلـك الجمـوع والعناصـر التـي تشكلت منها الحملة لم يكـن ينتظـر لـه غيـر هـذا المـصير المحتوم .

د. فتحي عبد العزيز

[١] ـ Tomaz Mastnak, Crusading Peace,USA2002,p.119.
[٢] _ Jon France , Western warfare in the Age of Crusades , 1000 _ 1300 , Londn 1999 . p.6.
[٣] ـ قاسم عبده قاسم : الحرب الصليبية الأولي ، نصوص ووثائق ، ص ١٧ـ١٨
[٤] ـ قاسم عبده قاسم : ماهية الحروب الصليبية ، ص ١١١.
[٥] ـ جيوبرت النوجنتي ضمن كتاب الحروب الصليبية نشر د. قاسم عبده قاسم ص ٩٨ـ٩٩.
[٦] ـ سعيد عبد الفتاح عاشور .الحركة الصليبية ، ج ١ ، ص ١٠٨.
[٧] ـ المرجع السابق ص ١٠٠
[٨] ـ سعيد عاشور : المرجع السابق ، ج ١، ص ١٠٨.
[٩] ـ يوشع براور : عالم الصليبيين ص ٣٨
[١٠] ـ عزيز سوريال عطية : الحروب الصليبية وتأثيرها علي العلاقات بين الشرق والغرب ، ص ٤٦
[١١] ـ سعيد عاشور : المرجع السابق ، ج ١ ، ص ١٠٩ـ ١١٠.
[١٢] ـ آنا كومنينا : الكسياد ، ضمن الموسوعة الشامية نشر سهيل زكار ج ٦ ، ص ١٤
[١٣] _ قضايا صليبية ، ص ٢٢

كل الطرق لا تؤدي إلي روما

د. فتحي عبد العزيز محمد

كل الطرق تؤدي إلي روما مقولة قديمة صدقت فترة من الزمن ، عندما كانت روما قلب العالم القديم وعاصمة أقوي إمبراطورية . فقد كانت تسيطر علي مساحة كبيرة من ذلك العالم ، بل وامتد نفوذها خارج ما وقع تحت سلطانها من بلدان .

امتدت أرجاء تلك الإمبراطورية في المناطق القريبة من آسيا وشمالي أفريقيا إلي جانب الغرب الأوربي . و إذ كان اهتمام الرومان بتعبيد الطرق بين أطراف الإمبراطورية باتجاه رومافإن البحر المتوسط كان الرابط الأساسي بين أرجاء تلك الإمبراطورية وعاصمتها روما .

نظر الرومان إلي البحر المتوسط علي أنه " بحرنا "Mare Nostrum. فقد جعلت منه الجيوش الإمبراطورية بحيرة رومانية ، تحيطها من كل جانب أراض رومانية ([١]) . ولقد ضمت الإمبراطورية خلال القرنين الأول والثاني للميلاد بين أرجائها مجتمعا ، هو الأغنى والأكثر تنوعا والأكثر استقرارا ضمن مجتمعات العالم القديم ، وأمكنها أن تحافظ علي التوازن بين سكانها علي الرغم من تنوع أجناسهم ومثلهم واختلاف عقائدهم وتقاليدهم ، وهو أمر لم تفلح فيه إمبراطوريات سابقة كالفرس أو الإغريق . ويصف المؤرخون عادة هذين القرنين بالسلام الروماني Pax Romana ([٢]) . وبالفعل شهدت تلك الحقبة حكومة مركزية قوية عملت علي تحقيق الاستقرار الاجتماعي ، مما مكن الناس من تحقيق الازدهار في دولة بلغت من الاتساع حدا مدهشا . حيث امتدت رقعتها إلي ما يزيد علي ثلاثة آلاف ميل مما يعرف الآن بمضيق جبل طارق غربا إلي منابع نهري دجلة والفرات شرقا ، ومن سور هادريان Hadrian s Wallشمالا- وهو سور حصين شيد في عام ١٢٢م لحماية بريطانيا من البكت الإسكوتلنديين - إلي حافة الصحراء

جنوبا . وعاش بداخل تلك الرقعة الواسعة مابين خمسين إلي ستين مليونا من البشر [٣] .

ولا ريب أن ذلك الازدهار الذي تميزت به تلك الحقبة من تاريخ الإمبراطورية كان [٤] غالي الثمن . لقد تحقق لها ذلك بعد عدة قرون من الحروب قبل أن تنعم بالسلام الروماني في كل مناطقها حول المتوسط : حروب بونية دامية إبان القرن الثالث قبل الميلاد مع قرطا جنة، وهي المنافس الرئيسي لها في السيطرة علي غرب ووسط البحر المتوسط . وحروب في الشرق مع ما تبقي من إمبراطورية الأسكندر الأكبر من دويلات إغريقية ضعيفة . وبعد غزوها للعالم المعروف آنذاك وتحقيقها لانتصارات حازتها بفضل ما كان لها من مقدرة حربية ، كان عليها أن تكابد من ويلات حرب أهلية وقعت في أتونها ، لتتمكن في النهاية من الفوز بالاستقرار . لقد كان علي الأحزاب الرومانية المتعارضة أن تخوض صراعا دام قرابة قرن من أجل أن يفوز أحدها بتطبيق مبادئه في كيفية إدارة الإمبراطورية تلك القوة العظمي الناشئة ،لتخرج الإمبراطورية بنظام لا جدال أنه قام علي سلطة مركزية هرمية فوضت فيه السلطة كثير من أمور الإدارة إلي السلطات المحلية . ويمكننا القول أن وراء ذلك الاستقرار الجيش الروماني والبحر المتوسط ، فهذين العاملين شكلا معا العالم الروماني ورعيا استقراره وحيويته [٥] .

فإذا كان الجيش حقق للإمبراطورية من خلال الحروب ما تريده من سيطرة وفرض نفوذ واستقرار وتحقيق السلام الروماني ، فإن البحر المتوسط كان ذا أثر في دعم ذلك كله . تركز العالم الروماني – مثلما العالم الوسيط الذي خلفه – حول البحر المتوسط ، مما وفر له الغذاء من خلال وسائل النقل البحري، وأهم من ذلك سهولة في الاتصال . ومن الجدير بالذكر أن سهولة المواصلات ويسر التبادل التجاري كان لهما بالغ الأثر في نشر الوحدة بل نشر الاتساق في الدولة الرومانية الأمر الذي جعل الغالبية من أبناء الإمبراطورية في مستوي معيشة طيبة ([٦]) ، وعندما يقول الرومان عنه بحرنا فهذا اعتراف منهم بفضله . فقد كان بمثابة البنية التحتية

الطبيعية التي ربطت بين أرجاء العالم الروماني ([٧]) . وبالفعل ظهر لروما ذلك جليا عندما سعت لفرض نفوذها خارج حوض المتوسط ، في وقت سابق علي السلام الروماني ، ففي محاولتها للتوسع باتجاه الشرق حيث دجلة والفرات أدي إلي اقترابها من النفوذ الفارسي وبالتالي إلي صدام مع الإمبراطورية الفارسية[٨] وكان لتوسع الإمبراطورية الرومانية من الشمال باتجاه الغرب الأوربي والوسط خطورته علي النظام الروماني ككل ، وذلك عندما حاول يوليوس قيصر منع تقدم الكلت إلي داخل الإمبراطورية مما أدي إلي انغماسها في حروب داخل القارة الأوربية . إن القارة الأوربية تختلف تماما في مناطقها شمالي الحدود الرومانية عن حوض البحر المتوسط وكانت السيادة الرومانية عليها أمرا مرهقا يتطلب بقاء قوات حربية تسيطر عليها [٩] .

لقد ساعد البحر المتوسط علي تدعيم نفوذ الإمبراطور وتنفيذه لإرادته ، ولاشك أن إدارة إمبراطورية واسعة المساحة مثل الإمبراطورية الرومانية بدون البحر المتوسط كانت ضربا من المستحيل ، إن القوة الحقيقية لأي حاكم ليست ما اعتقد عن قدرته ، وإنما هي مقدرته علي فرض إرادته. فالقوة الحقيقية للإمبراطور الروماني دعمها البحر المتوسط من خلال إمكانية وصول قواته إلي أي مكان في حوض المتوسط في وقت قصير يمكنه خلاله سحق أي تمرد في أي من الولايات التابعة له قبل أن يتفاقم خطر ذلك التمرد . فالسفن الإمبراطورية كان بإمكانها أن تقلع من روما وتنتشر في أرجاء المتوسط وفي جو ملاحي مناسب فيما لا يتعدي الأسبوعين . أن السفن التي تقلع من روما إلي برشلونة – علي سبيل المثال – تصلها في غضون أربعة أيام فقط . بينما تلك المتجهة إلي الإسكندرية ، بإمكانها أن تلقي مراسيها هناك في أقل من أسبوع . تلك الحقيقة أتاحت فرض القانون الروماني والإرادة الإمبراطورية ، ولا ريب أن أخبار التمرد في أي ولاية كانت تصل روما بشكل سريع لا يدع الفرصة لأصحابه أن يحققوا ما يمكن أن يؤثر علي استقرار الإمبراطورية . ولا تحلم أية إمبراطورية بما حظيت به روما من استقرار سياسي أو اقتصادي أو ثقافي بفضل ما

وفره لها البحر المتوسط مما كان سببا في قوتها .إن امتداد الإمبراطورية الرومانية علي شواطئ البحر المتوسط مكنها من استخدامه للربط بين مختلف أجزائها ، وبسط نفوذها علي البلدان الواقعة تحت سيطرتها [١٠] .

ولا يعني الأمر أن الجيش الإمبراطوري أو تواجد الإمبراطورية حول حوض البحر المتوسط هما اللذان حققا قوة الإمبراطورية بشكل أساسي ، إن وجود جيش مدرب محترف بغير شك يدعم سلام دولة ، ويحافظ علي بقائها وسط التحديات التي تعترضها . كما أن تمتع الدولة بحدود طبيعية وطرق مواصلات تدعم ترابطها أمر يحقق لها الاستقرار ، غير أن العامل الأهم هو ما حظيت به الإمبراطورية من أباطرة أكفاء ساهموا بغير شك في الحفاظ علي كيانها .

ويمكننا القول أن الأباطرة الرومان بشكل عام رجال ذوي كفاءة ، وكان الإمبراطور الروماني في القرن الثاني مدركا لما تحوزه الإمبراطورية من أراض شاسعة وشعوب متعددة الأجناس والثقافات ، فهو علي قمة صرح ضخم ، وتحيط به كحاكم مستبد مظاهر توحي بصفاته المقدسة . تعمل تحت سيطرته حكومة بيروقراطية نشيطة متواضعة في حجمها ، إلي جانب جيشه الكبير. وحرص الأباطرة طوال القرن الثاني تقريبا علي السيطرة علي الحكومة والقانون معا ([١١]). ومع ذلك لم يمتد ذلك الحرص من قبلهم إلي السيطرة علي جوانب الحياة الاقتصادية والدينية والثقافية إلا بقدر ، مما أدي إلي الازدهار وارتقاء الفكر ([١٢])
غير أن النظام الإمبراطوري كان أقل ثباتا في مواجهة أخطار وشدائد حاقت بالإمبراطورية في عهدها الأخير ، وكشفت تلك الإخطار والشدائد عن مواطن ضعف في النظام الإمبراطوري ([١٣]) . تلك المواطن التي حاول أباطرة القرنين الثالث والرابع معالجتها بإعادة تنظيم الإمبراطورية . وكان من بينها اتخاذ عاصمة جديدة للإمبراطورية علي أن تكون في الجانب الشرقي منها ، لما توفره من سرعة مواجهة ضد العدو الفارسي ، ولما في الشرق من كثافة سكانية يعتمد عليها ووفرة الخيرات

في ذلك الجانب . بدأ دقلديانوس باتخاذ نيقوميديا عاصمة له ، غير أن ما فعله قنسطنطين من بناء مدينة جديدة عند مضيق البوسفور لتكون عاصمة للإمبراطورية كان أشد وطأة علي مستقبل روما . أراد قنسطنطين أن تحمل العاصمة عند البوسفور أسم روما الجديدة ، بينما أبت هي إلا أن تحمل أسمه وصارت القسطنطينية قلب عالم جديد يقصدها التجار وتتجه إليها المتاجر ، وتتلاشي مكانة روما تدريجيا ولم تعد كل الطرق تقود إليها .....

---

[١] John L. Lamont, The World of The Middle Ages , N.Y. 1949, p 3

_

-

[٢] ـ السلام الروماني ، هو عبارة عن وحدة اقتصادية وسياسية ساشعة الأبعاد مركزها البحر المتوسط الذي قامت في بلدانه مدن عظمي، كانتور : المرجع السابق ، جـ ١ ص٤٠ .

[٣] ــــ V. The worlds of medieval Europe,Oxford ، Clifford R. Backman press,2003,p

[٥] ـ Ibide,p7.

[٦] ـ سانت موس ، ميلاد العصور الوسطي ، ترجمة ، عبد العزيز جاويد، القاهرة ١٩٩٨،ص ١٩

[٧] ـ Ibide , p7.

[٨] _ Clifford backman , Op.Cit ,pp. 7- 8

[٩] ـ Ibide, p10

[١٠] ـ سعيد عاشور : أوربا العصور الوسطي ، التاريخ السياسي ، جـ ١ ، القاهرة ١٩٨٦ ، ص ٢٦.

[١١] ـ كانتور : المرجع السابق ، جـ ١ ، ص ٤٠ .

[١٢] ـ نفسه ، ص٤٠ – ٤٢ .

[١٣] - موس ، المرجع السابق، ص ٢٠.

الاستراتيجية والتكتيك بين المسلمين والروم
الصدام المبكر

د . فتحي عبد العزيز محمد

أستاذ مساعد تاريخ العصور الوسطي

جامعة الباحة

بدأت الفتوحات الإسلامية علي الجانب الرومي مبكرة عن تلك التي دارت علي الجانب الفارسي . وكتب الكثير عن تلك الفتوحات، وخاصة في الفترة من بداية القرن الثامن ٧٠٠م إلي منتصف القرن العاشر ٩٥٠م ، وهي الفترة المؤثرة للغزوات الإسلامية . إلا أن الفترة الباكرة ـ النصف الأول من القرن السابع ـ هي الأجدر بمزيد من الدراسة والبحث لما تمثله من ركيزة لعمليات الفتح ، وما تبينه من طبيعة العلاقات بين الدولة الإسلامية الناشئة وجيرانها من الفرس والروم . وكان الفرس في قمة نشاطهم الحربي ، في الوقت الذي عمل فيه الروم علي إحداث تغييرات عسكرية للجيش الإمبراطوري ـ بدءا من عهد طبريوس وموريس ـ بعد قرون من الركود . ولا ريب أن الإمبراطورية البيزنطية (الروم) لم تكن في حالة انهيار عندما واجهت المسلمين في تلك الفترة .

كما تعطينا أحداث تلك الفترة أيضا صورة حقيقية للمقاتل المسلم ، ومفهومه عن الحرب ، وفكره العسكري ، تغاير كل المفاهيم التي عكستها كتابات تقلل من شأن ذلك المقاتل الذي بدا فوزه وانتصاره ـ في تصورهم ـ وكأنه جاء بالصدفة . وإن أعادت بعض دراسات جادة الأمور إلي نصابها فهي قاصرة عن بيان القيمة الحقيقية للقادة وخططهم الحربية وتحركاتهم في ميادين القتال . وفي هذه الدراسة نحاول استجلاء طبيعة الحياة العسكرية وفن الحرب والنظم الحربية علي الجانبين الإسلامي والرومي (البيزنطي) في مرحلة الصدام المبكر. أيضا معرفة ما أحدثته الفتوحات الأولية علي كل من الاستراتيجية والتكتيك للروم .

اشتقت كلمة استراتيجية Strategia من لفظة Stratos أي الجيش وStrategos أي قائد الجيش وهي تعني فن القيادة ، علي العكس من المفهوم الحديث للكلمة " فن وتقنية استغلال كل المصادر المتاحة لتحقيق أهداف الحرب ([١]) ". والواقع أن كلمة استراتيجية تغير مدلولها عبر العصور ، فصارت تستخدم علي المستوي المدني أيضا كما هو معلوم . غير أن مدلول الاستراتيجية العسكرية ظل يعني ليس فقط استخدام القوة ، بل التهديد باستخدامها أيضا . ولا تهتم الاستراتيجية العسكرية بالحرب فحسب ، وإنما التهديد بنشوبها .

بينما تعني كلمة تكتيك علم الحركة في الحرب أي أن التكتيك هو إستراتيجية فن الحركة ، والتسلح ، وحركة الجيش . أما الدعم اللوجيستي ، فهو ما يتعلق بالإمداد والتموين أو ما تمثله إدارة التنظيم والمهمات .

ولم يكن الأمر سهلا دوما بالنسبة لقادة الروم وبيزنطة وحكومتها في التفرقة بين الاستراتيجية والتكتيك . حيث تفيدنا المصادر والأبحاث العسكرية الخاصة بتلك الفترة أن الاثنين كانا كلا لا يتجزأ .
غير أن الاهتمام كان كبيرا في مجال دراسة الخطط الحربية ، حيث صنفت المؤلفات في أحدث فنون القتال . كذلك أدرك المشتغلون بفنون الحرب أنه من الجهل أن يتبع المحارب وسيلة واحدة في مواجهة الأعداء المختلفين . فقد لاحظوا بصورة دقيقة اختلاف العادات العسكرية لكل عدو من أعدائهم ، وبالتالي أمكن لهم التوصل إلي أساسيات عسكرية يختلف اتباعها باختلاف العدو الذي يواجهونه . وكان للتدريب أهمية خاصة حيث أخضع الجند لتدريبات مهارية عالية . كما فهموا أهمية التنظيم وخطورة الاعتماد علي الحظ أو المصادفة مع ما يمثله ذلك من خسارة لا ضرورة للوقوع بها وكانت تراعي أبسط الأمور وكان هناك اهتمام خاص بالدعم اللوجيستي - إن جاز لنا استخدام ذلك المصطلح - وكانت ترافق الجيوش وسائل الإسعاف والعلاج ([٢]).

ومهما يكن من أمر ، فإن ما يعنينا هو مدي التغيير الذي أحدثته الفتوحات الإسلامية علي كل من الاستراتيجية والتكتيك للدولة البيزنطية أو دولة الروم .

عرض تاريخي :

الروم أو البيزنطيون ، هم سكان القسم الشرقي من الإمبراطورية الرومانية القديمة ، تلك الإمبراطورية التي قسمها الإمبراطور ثيودوسيوس الأول عام ٣٩١ م بين ولديه هونوريوس الذي كان القسم الغربي من نصيبه ، وأركاديوس الذي تولي القسم الشرقي . ولم يكن يعني بذلك فصل الإمبراطورية ، فالعقيدة السياسية الغالبة تقول بإمبراطورية عالمية واحدة . لذلك كانت المراسم في أي من القسمين تسري في القسم الآخر ، إلا أنه وبمضي الزمن تباعد القسمان . وتعرض القسم الغربي للوقوع في أيدي الجماعات الجرمانية التي مزقته إلي ممالك تعاقبت في حكمه ، بينما ظل القسم الشرقي متماسكا . وعرف باسم الإمبراطورية الرومانية ، في الوقت الذي أطلق عليه المؤرخون المحدثون اسم الإمبراطورية الرومانية المتأخرة ، أو الشرقية ، ثم الإمبراطورية البيزنطية .

وتجدر الإشارة إلي أن الإمبراطورية البيزنطية لم تعرف في زمنها بهذا الاسم . وكان مصطلح بيزنطي يستخدم بالفعل للدلالة علي قاطني القسطنطينية فقط ، تلك المدينة التي شيدها قنسطنطين علي أنقاض بيزنطة القديمة علي مضيق البوسفور ، لتكون عاصمة للإمبراطورية بدلا من روما . وأطلق عليها روما الجديدة ، في الوقت الذي أبت فيه إلا أن تحمل أسمه ، بينما صار الاسم القديم بيزنطة يدل علي حقبة طويلة استمرت ألف ومائة عام هي عمر الإمبراطورية البيزنطية . ولقد ظل رعايا الإمبراطور في القسطنطينية يشيرون إلي أنفسهم علي أنهم رومان Rohomaioi ـ تمسكا بالمجد الروماني التليد . كما وصفهم القران الكريم بهذا الوصف ـ حيث جاء ذكرهم في سورة باسم الروم ـ " الم . غُلِبَتِ الرُّومُ . فِي

أَدْنَى الأَرْضِ وَهُم مِّن بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ " . وهو ما عرفهم به العرب أيضا .

وإذا كان القسم الغربي من الإمبراطورية الرومانية تعرض لقوي فتكت به ، فإن القسم الشرقي (الروم البيزنطيون) كان طيلة الوقت في مواجهة تحد دائم من قبل جيرانه صغرت أم كبرت قوتهم . فعلي الجانب الشرقي وهو ما يهمنا كان الفرس ، ومن بعدهم القوي الإسلامية ... ناهيك عن باقي الجوانب . مما فرض علي الإمبراطورية استراتيجيه معينة ترتكز علي محورين : ففي مواجهة جيرانها كان عليها أن تعمل من أجل البقاء ، فالجيران منهم الأعداء ومنهم من يحتمل عداوته . أما المحور الثاني هو العمل علي تحقيق عقيدتها السياسية الرامية علي المدى البعيد لاسترجاع ما فقدت في الغرب من أراضي . بيد أن ذلك الهدف الاستراتيجي ـ أي المحور الثاني ـ كان بعيد المنال ، خاصة خلال القرنين السابع والثامن اللذان يوصفان بأنهما عصور بيزنطية مظلمة . فالإمبراطورية لم تعد قادرة علي التمسك بدفاعاتها في مواجهة الضغط الخارجي ([٣]) ،ففي خلال سنوات قليلة استولي السلاف والبلغار في أوربا علي أجزاء واسعة مما كان يعرف سابقا بيوغوسلافيا ، وبلغاريا ، وشمال اليونان ، والبلغار . بينما أخذت تضعف سيطرة الإمبراطورية البيزنطية علي شبه الجزيرة الإيطالية ([٤]). حيث تركت لمقتسميها .

كانت بالفعل كل تلك الأعمال بداية فترة مظلمة في تاريخ الإمبراطورية. وكان أخطر تلك الهجمات أثرا ما دار علي الجانب الشرقي لدولة الروم وهو الغزو الفارسي ، وما تلاه من فتوحات إسلامية . فقد قام الفرس الساسانيون ، بعد اعتلاء هرقل (٦١٠- ٦٤١) العرش الإمبراطوري بعام – أي في سنة ٦١١م – بمهاجمة الإمبراطورية البيزنطية• ([٥]). حيث قاد الملك الفارسي خسرو الثاني قواته التي اخترقت الحدود الفاصلة بين إمبراطوريتهم والإمبراطورية الرومانية . وقاموا بغزو شرق الأناضول ، فاستولوا علي أنطاكية ، ثم دمشق ومنها إلي قيليقية ، وطردوا البيزنطيين من أرمينيا . وجاءت الطامة

الكبرى باستيلائهم علي بيت المقدس سنة ٦١٤م ، وذلك بعد حصار دام لأكثر من ثلاثة أسابيع ، فجعلوها طعمة للنيران ، وأعملوا في أهلها السيف لتغرق القدس في الدماء ، بعد مقتل ما يتجاوز التسعين ألفا من سكان المدينة . ويبدو أن ذلك الرقم مبالغ فيه . وهناك رقم آخر ذكره الراهب انطاكيوس ستراتيفوس الذي كان شاهد عيان لما جري ، حيث ذكر بعد وصفه لهم بالخنازير البرية وهي تنقض علي المدينة المقدسة ، وقد ملأ الجو زئيرهم وفحيحهم أنهم قتلوا كل من وجدوه بل ودون الإبقاء علي حياة النساء والأطفال ، فبلغ عدد القتلى حسب تقديراته ٦٦٥٥٥ شخصا ([٦]) .

ويبدو أن الأحوال كانت مواتية تماما للفرس ، فلم تتوقف الجيوش الفارسية عند ذلك الحد ، بل تقدم أحد جيوشها مخترقا آسيا الصغرى حتى وصل سنة ٦١٥ إلي مدينة كريسوبوليس المواجهة للقسطنطينية . في الوقت الذي تقدم فيه جيش آخر نحو مصر ، حيث فقدت الإمبراطورية باستيلاء الفرس عليها أكبر مورد للقمح ([٧]) . وحدثت ضائقة اقتصادية في القسطنطينية بسبب ذلك . في الوقت الذي انقطع فيه عن هرقل كثير من الموارد البشرية التي كانت توفرها له البلقان والشام ومصر ([٨]).

ويمكن أن يعزو أمر تلك الكارثة إلي الوضع العام الذي كانت عليه الإمبراطورية قبل عام من تولي هرقل الحكم . حيث تولي إمبراطورية نصفها في أيد أجنبية ، وخزانة مستنفدة ، ورعايا تدنت أخلاقياتهم ، وإدارة مدنية سيئة السمعة . وفيما يتعلق بالجيش فالموقف أسوأ ، حيث كانت رواتب الجند تتأخر أو تتوقف ، وذلك حسب وضع الخزانة الإمبراطورية . ومفهوم أن تلك الظروف تضعف عزيمة الجند للقتال ، وتجبر الأباطرة علي الاتجاه لجلب المرتزقة الأجانب غير الموثوق بهم . أيضا كان ذلك الموقف هو الذي أتاح للآفار ومعهم البلغار والسلاف اجتياح البلقان التابعة للروم بسهولة ، وسمح للفرس ـ كما رأينا ـ بالتقدم والتوغل في أراضي الإمبراطورية ([٩]).

ولا شك أن وضعا مثل ذلك ، كان حريا به أن يبعث اليأس في قلب الإمبراطور الذي فكر جديا في ترك القسطنطينية والتوجه إلي قرطاجنة ليس يأسا من مواجهة الفرس كما قد يتبادر إلي الذهن وإنما ليتخذ منها قاعدة ، وتدعمه أسرته الحاكمة هناك . والواقع أن تغيير العواصم كان موروثا تاريخيا ، فقد نقل بعض الأباطرة عاصمة حكمهم من روما إلي أماكن أخري ، مما دفع بهرقل لمثل هذا التفكير ([١٠]) . خاصة بعد أن فقد جانبا كبيرا من العمق الاستراتيجي للدولة في جانبها الشرقي .

ولأول مرة كان علي الإمبراطورية أن تدافع حقا من أجل البقاء . وبإلحاح من البطريرك سرجيوس بطريرك القسطنطينية الذي ناشده البقاء قرر هرقل التراجع عن موقفه . ولأن الإمبراطورية في حاجة ماسة إلي المال ، فقد دفع سرجيوس إليه بأموال وكنوز الكنيسة . ويبدو أن ذلك كان قرضا ضخما حيث شمل معظم ذهب وفضة الكنيسة ([١١]). ولأجل استنهاض معنويات البيزنطيين صبغت المواجهة مع الفرس بصبغة دينية لقد صارت حربا دينية خاصة وأن الفرس عند مهاجمتهم بيت المقدس استولوا علي الصليب المقدس عند المسيحيين .كما قتلوا وأسروا الرهبان والقساوسة وكان بطريرك بيت المقدس من بين الأسري لقد كانت أول حرب شنتها بيزنطة بدافع الحماسة الدينية ضد الفرس عباد النار .

هادن الإمبراطور هرقل كل من السلاف والآفار ليتفرغ لتلك الحرب ، وتمركز هرقل في الأناضول مع ما تبقي من الجيش الرئيسي ، وجيوش تراقيا ، وأرمينيا ، والشرق ، وأعد عدته للهجوم . بدأ هرقل الحرب ضد الفرس في أبريل سنة ٦٢٢، وأمكنه أن يحرر آسيا الصغرى من سيطرة الفرس . وفي عام ٧٢٧ م تمكن من مهاجمة الفرس في داخل بلادهم. وحدث الصدام بين الجيشين في مقابل نينوى بالقرب من الموصل شمالي العراق ، وكان النصر حليفا له ([١٢]).

لقد بينت أحداث الصراع الفارسي الرومي مدي مقدرة هرقل الحربية الفائقة ، كذلك قدرته علي التخطيط الجيد . وحق له أن يسعد بانتصاره علي الفرس . بيد أن السعادة لم تلازمه طويلا ، فما استرده في بضع سنين ، فقده أيضا في بضع سنين في محاربته للمسلمين الذين أحدث قادتهم انقلابا في التاريخ العسكري في عالم العصور الوسطي . وهذا ما نبغي ، وما سنعرض له .

لم يكن المسلمون في يوم من الأيام دعاة حرب ،بعكس تلك الصورة التي حاول بعض المستشرقين تسويقها عنهم . ولأن الإسلام دعوة إلي الناس كافة في كل زمان ومكان ، فإن الرسول الكريم صلي الله عليه وسلم ، قام بعد صلح الحديبية بإرسال الرسل إلي الملوك والأباطرة يدعوهم بدعاية الإسلام . وكتب معهم كتبا مؤداها الترغيب في الإسلام ، فبعث الصحابي الجليل دحيه بن خليفة الكلبي إلي هرقل ، فلقيه في بصري بالشام ، وقيل في بيت المقدس . ورد هرقل علي الرسالة ردا حسنا ، وقال لحامل الرسالة : " عندما يسلم به أقرب الناس إليه نري رأينا "([١٣]) . ومن هنا بدأت العلاقة بين الدولة البيزنطية ودولة الإسلام.

كانت البداية إذن بين الجانبين محاولة لمد يد السلام وعرض رسالة الإسلام . ولا ريب أن علاقات المسلمين بالروم علي مر العصور لا يمكن أن يكون لها إلا هذا المدخل الطبيعي ، ولا يمكن أن تفهم علي وجهها الصحيح بمعزل عن منبعها الأول وهو عصر النبوة ([١٤]) . لقد كانت كتب الرسول دعوة للإسلام ، ولحسن الجوار والعلاقات السلمية . بيد أن الغساسنة ـ حلفاء البيزنطيين الذين كانوا بمثابة إمارة حدودية عربية عازلة بين الروم وباقي الجزيرة العربية ـ كانوا سببا في قلب الموازيين . فقد استقبلوا كتب الرسول بصورة عدوانية وقاموا بقتل الحارث بن عمير الأزدي مبعوث رسول الله إلي حاكم بصري ، كما قتل فروة بن عمر الجذامي عامل الروم في معان عندما أعلن إسلامه . ويعد ذلك العمل عملا عدائيا ، وبمثابة إعلان للحرب ([١٥]) . وعندما علم الغساسنة بمقدم المسلمين إليهم لعقابهم (سرية مؤتة ٨هـ /

٦٢٩م) جراء ما اقترفوا في حق مبعوث الرسـول سـارعوا باستعداء البيزنطيين عليهم . لقد أشعل عرب الشام فتيـل القتال بين المسلمين والروم .

ومن هنا بدأت العلاقة التي أراد لها الرسـول الكـريم أن تكون علاقة سلام بينما أراد لها الروم أن تكون علاقة حرب وعـدوان .وبمعركـة مؤتـة بـدأت الحـرب بـين الـدولتين ، أو العـداء . ولـيس عـداء أو تنـافس بـين عقيـدتين كمـا ذهـب المؤرخ نيكول حيث ذكر أن الرسول صلي الله عليه وسـلم كان يعتبر المسيحيين حلفاء ، ولكن فقط بعد صدام أتباعـه مع القبائل العربية المتحالفـة مـع بيزنطـة فـي مؤتـة فـإن أصحاب العقيدتين صـاروا متنافـسين ([١٦]) وهـذا القـول فيه تجـن ، حيـث نظـر الإسـلام إلـي النـصارى علـي أنهـم أقرب مـودة ، بيـد أن مـا فعلتـه القبائـل المـسيحية شـمال الجزيرة العربيـة ضـد المـسلمين تجـاوز تلـك المـودة وكـان السكوت عليه يعني تهديد أمن الدولة الإسـلامية الناشـئة .

وتجـدر الإشـارة إلـي أن ذلـك المـسلك مـن قبـل الـروم اصطدم بإستراتيجية الدولة الإسلامية الناشئة في جانبها السياسـي ، حيث كانت تعتمد في الأساس علي أسـاليب الإقنـاع مـن خـلال دعـوة الحكـام وقـادة الـشعوب إلـي الإسـلام ([١٧]) . وأدي بالتـالي إلـي تغيـر جـذري فـي الاستراتيجية الإسلامية .

ومهما يكن من أمـر ، فـإن سـرية مؤتـة لهـا قيمتهـا مـن حيث الفكر العسكري أو الاستراتيجية والتكتيـك الحربـي ، فمـن الناحيـة الاسـتراتيجية كانـت محاولـة لتأديـب عـرب الـشام وإرهـابهم . أمـا الناحيـة التكتيكيـة فكانـت مثـالا للمرونـة وسـرعة التحـرك وفـق الإمكانيـات المتاحـة . لقـد فـوجئ المـسلمون بقـوات الـروم ، ولـم يكـن ذلـك فـي حسبانهم . وكان عليهم العمـل سـريعا . بـدءا مـن الموقـع الـذي رأوه مناسـبا كميـدان قتـال ،فـالموقع الـذي اختـاره المـسلمون للقتـال كـان حـصينا ، حيـث الحـواجز الطبيعـة التي يمكن لهم التحـصن بهـا أمـام الأعـداد الكبيـرة لقـوات العـدو . وكـان علـي القائـد الـذي اسـند لـه اللـواء بعـد استشهاد زيد بن حارثة ، وجعفر بن أبي طالب ، وعبـد الله

بن رواحه أن ينقذ المسلمين ويقلل عـدد الخـسائر . فقـام خالد بن الوليد بعمل تكتيكي يـدل علـي المرونـة وسـرعة الحركة والقدرة علي خداع العدو . حيث عدل نظام الجيش ، بـأن جعـل مقدمتـه سـاقه ، وسـاقه مقدمتـه وميمنتـه ميسرته وميسرته ميمنته فـأنكر الأعـداء مـا كـانوا يعرفـون من راياتهم وهيئاتهم وقالوا : قد جاءهم مدد . وبذلك أمكـن للقائـد ، ومـا يمكـن أن نـسميه فـن القائـد أن يرجـع إلـي المدينة دون أن يجرؤ العدو علي مطاردته ([١٨]) .

وإذا كان مدلول الاستراتيجية يعني اسـتخدام القـوة ، أو التهديد باستخدامها . فإن التهديد باستخدام القوة والقـدرة علي فعل ذلك بدا جليا في غزوة تبوك فـي العـام التاسـع للهجرة .حيث علم الرسول صلي اللّه عليه وسلم أن الروم تجمعوا في جنوب الشام وقد انضمت إليهم بعض القبائـل العربية . وكان لابـد مـن التهديـد باسـتخدام القـوة " ففـي رجب من هـذه الـسنة أمـر النبـي صـلي اللّه عليـه وسـلم بالتجهز لغزو الروم ، وأعلم الناس مقصدهم لبعد الطريق ، وقسوة العدو . وكان قبل ذلك أذا أراد غـزوة وري بغيرهـا " ([١٩]) . ويتبين لنا مما ذكره أبوالفدا كيف كان يـأمر للغـزو والتجهيز للقتـال ، كمـا بـين لهـم مـصاعب الطريـق وقـدرة العدو ليعدهم معنويا لملاقاة عدو لا يستهان به .

وسمي الجيش بجيش العسرة لجدب البلاد وشدة الحر ، ومما تذكره المصادر ما يبين لنا طريقـة التمويـل والإمـداد وهو ما يعرف حاليا بالـدعم اللوجيـستي . فقـد أمـر النبـي صلي اللّه عليه وسلم المسلمين بالنفقـة ، فـأنفق أبـوبكر الـصديق جميـع مالـه ، وأنفـق عثمـان نفقـة عظيمـة قيـل كانت ثلاثمائـة بعيـر طعامـا ، وألـف دينـار ، وروي أن النبـي صلي اللّه عليه وسلم قال لا يضر عثمان ما صنع بعد اليوم دلالة علي عظمة الإنفاق في سبيل اللّه ([٢٠]) .

وخرج الرسول صلي اللّه عليه وسلم ومعـه ثلاثـون ألـف مقاتل ، وأما الخيل فكانت عشرة آلاف ، ولقوا في الطريق مـن المـصاعب الكثيـر حيـث شـدة العطـش والحـر . وبلـغ الرسول صلي اللّه عليه وسلم تبـوك ، وأقـام بهـا عـشرين ليلة . وهنـا التـساؤل ، مـا الـدافع لهـذه الغـزوة فـي وقـت

شديد الصعوبة علي المشاركين فيها ؟ ولماذا لم يتم قتال بين المسلمين والروم ؟ وما النتائج التي حققتها ؟ .
لقد تنامي إلي علم الرسول الكريم ما كان يعد له الروم وحلفائهم ، لذا تطلب الأمر مواجهة التهديد ـ الذي يمثله ذلك التكتل ضد المسلمين ـ دونما إبطاء أو توان ، حتى يتبين للأعداء أن المسلمين قادرون علي الردع الحربي .
ولقد انسحب الروم وأتباعهم ، قبل أن تصل قوات المسلمين ، فقد وصلتهم المعلومات عن ضخامة جيش المسلمين وارتفاع معنوياتهم ، مما استلزم من جانبهم مزيد من الإعداد ([٣١]). وإذ لم يحدث الصدام إلا أن تلك الغزوة أثمرت . فقد حدث خلال إقامة الرسول صلي الله عليه وسلم بتبوك أن صالحه أهلها كما أقبلت إليه الوفود من آيلة وغيرها ، وصالحوه علي دفع الجزية . ومن تبوك أوفد الرسول صلي الله عليه وسلم خالد بن الوليد إلي دومة الجندل فأستولي عليها ، وأسر حاكمها .

اهتم الرسول صلي الله عليه وسلم بالحدود الشمالية ، وما قد تمثله من خطر علي الدولة ، فأعد في العام الحادي عشر من الهجرة جيشا لمحاربة البيزنطيين وعين له أسامة بن زيد ، إلا أنه توفي قبل أن يتحرك الجيش . غير أن الخليفة أبوبكر الصديق أنفذ الجيش وعلي رأسه أسامة لمحاربة الروم كما أراد الرسول الكريم . خرج أسامة مع غرة ربيع الآخر سنة احدي عشر للهجرة ، حتى وصل تبوك فلم يجد أحدا ، عندها قرر العودة ، وعند وصوله استقبله أبو بكر الصديق ([٣٢]) .

بدت المعارك في عهد الخليفة أبي بكر في صورة المعارك الكبرى ، فبعد أن عاد أبو بكر من الحج ، بدأ يفكر في فتح الشام . كانت بلاد الشام أرضا جميلة ، وهي أجمل أقاليم الإمبراطورية البيزنطية آنذاك فمناخها معتدل بتأثير البحر المتوسط الذي يلطف حرارة الصحراء وبرودة الأجواء الشمالية . وكانت أنطاكية عاصمة المناطق الآسيوية من الإمبراطورية وتأتي بعد القسطنطينية في البهاء والأهمية السياسية . وكانت بلاد الشام سياسيا تتكون من إقليمين إقليم سوريا وهو يمتد من أنطاكية وحلب في الشمال وحتى الجزء الأعلى من البحر الميت .

ويضم الأماكن المقدسة للأديان السماوية ومدنا لا تقل غني ومدنية عن سائر مدن العالم وكان العرب في ذلك العصر يتحدثون عن إقليم الأردن والذي يقع بين سوريا وفلسطين ولكن هذه المنطقة يمكن اعتبارها إقليما من الناحية الجغرافية فقط وليس من الناحية السياسية أو الإدارية . وهذه الأقاليم جميعها تابعة للروم . لذا فإن فتح الشام يعني الكثير للقسطنطينية ([٢٣])

لقد كان فتح الشام ضرورة فرضتها التهديدات المتكررة من قبل الروم وجيرانهم من القبائل العربية المتحالفة معهم. وبالتالي فإن تأمين الحدود الشمالية كان أمرا فرضته الأوضاع عند تلك الحدود . وتوجهت وفقا لهذا المطلب الاستراتيجي أربعة جيوش إلي الشام يقودها أشهر قادة المسلمين . الجيش الأول بقيادة أبي عبيدة وتوجه إلي حمص ، الجيش الثاني بقيادة يزيد بن أبي سفيان وتوجه إلي دمشق ، الجيش الثالث بقيادة شرحبيل بن حسنة وتوجه إلي الأردن ، أما الجيش الرابع فكان بقيادة عمر بن العاص وتوجه إلي فلسطين .

عندما انطلقت ألوية المسلمين من المدينة ، تلقي جيش الروم معلومات التحرك بواسطة العرب النصارى . وعندما أخبر بها هرقل أدرك أن هذا التحرك هو محاولة جادة لفتح إمبراطوريته . وكان أخطر ما بلغه – بعد ذلك بوقت قصير - هو هزيمة قوات التغطية الرومانية التي أرسلت إلي أجنادين علي يد اللواء الذي كان في طليعة جيش المسلمين ، لذلك قرر أن ينزل العقاب بهؤلاء المهاجمين . وبناء علي أوامره بدأت مجموعات كبيرة من جيش الروم في التحرك إلي أجنادين من الحاميات المنتشرة في أنحاء سوريا وفلسطين . وقد تزايدت الحشود الرومية وعلم بأمرها المسلمون . وتم إبلاغ الخليفة بالأمر ، بدا الموقف سيئا ، كان الروم يحشدون قواتهم في جيش واحد كبير لخوض معركة هجومية شاملة في الميدان .وليس أمام المسلمين إلا أن يختاروا حلا من اثنين : إما الحرب ضد الروم في معركة من الثبات ، وإما الانسحاب السريع إلي الجزيرة العربية ، وهما حلان غير مناسبان للتفكير بشأنهما . وقد عارض الخليفة الحل

الثاني بشكل قاطع . فالعودة إلي الجزيرة غير واردة ، وفتح بلاد الشام قد بدأ ولا تراجع عنه ، ويجب تدعيمه .

وأمام ذلك الموقف المعقد كان لابد من عمل سريع . قرر الخليفة أبوبكر الاستعانة بخالد بن الوليد الذي خاض معارك من نوع المعارك الكبرى في مواجهة الفرس ، ولخبرته تلك فهو مناسب لقيادة الألوية في الشام . . لقد كان استدعاء خالد إلي الشام ضرورة قدرها الخليفة خاصة بعد أن تمكن خالد من إنجاز المرحلة الأولي من مهمته بفتح الحيرة . وكانت المدائن هي المرحلة الثانية والأخيرة من تلك المهمة . كما أضعف فتح الحيرة قوة الفرس ولم يعد بإمكانهم التدخل في العمليات الحربية بالشام إن فكروا في توحيد جهودهم مع الروم للإطباق علي المسلمين. لذلك كان ممكنا أن يتوجه خالد إلي الميدان الذي يحتاج دعمه . ولا يعني ذهاب خالد إلي الشام ترك الجبهة الفارسية بلا تواجد إسلامي ذا شأن . فقد أمر الخليفة بأن يترك خالد نصف قواته بها تحت قيادة المثني الذي خلفه في العراق([٢٤]) .

واجتاز خالد بادية الشام في وقت قياسي ونزل علي بصري الحصينة وعليها أبو عبيدة بن الجراح ، وشرحبيل بن حسنة ، ويزيد بن أبي سفيان ، واجتمعوا عليها حتى فتحها الله علي المسلمين ، فكانت أول مدينة من مدائن الشام فتحت في خلافة أبي بكر .

كانت أولي ثمار انضمام خالد إلي جيوش الشام ، كما رأينا ، الفوز ببصري . وجاء دور أجنادين ، حيث كانت قوات الروم محتشدة في أعداد كبيرة بأجنادين . وخشي خالد أن تسارع تلك القوات بتقييد حركته ومنع تقدمه ، لذلك عمل علي إجهاض أي محاولة من هذا القبيل . وكتب إلي قواده بالتجمع عند أجنادين ، وحشدت القوات الإسلامية علي مسافة ميل من قوات الروم ، وبلغ عددها حوالي اثنين وثلاثون ألف مقاتل . وبدأ يستطلع أخبار القوات الرومية لجمع المعلومات عنها . وفي صباح الثامن والعشرين من جمادي الأولي عام ١٣هـ ، بدأ في التحرك في تشكيل مفتوح علي مسافة خمسة أميال حتى لا

يعطي فرصة للعدو من الالتفاف حول قواته . استمرت المعركة يومان لم تكن نتائجها الأولية في صالح المسلمين غير أن خالدا دفع بقوات الاحتياط التي تمكنت من قتل قائد الروم ، وعندها تفرق شمل الروم .

كان هرقل يتابع الموقف من حمص ، وعندما علم بهزيمة قواته أدرك أن جيوش المسلمين لن تتوقف عند هذا الحد ، فعمل علي الإعداد لمعركة الحسم وإبادة الجيوش الإسلامية وطردها من الشام نهائيا . وقد حاول جر جيوش المسلمين بعيدا عن الصحراء التي تمثل مسرحا جيدا للحرب بالنسبة للمسلمين وهو ما لم يتم . وكان عليه ليحقق هدفه بعدما لم يتمكن من استدراج المسلمين أن يحشد أكبر عدد من الجند ليهاجم . وكانت معركة اليرموك ٦٣٦م .

اختلفت آراء المؤرخين حول طبيعة تلك المعركة ، وخطة كل من الطرفين فيها . فهل كانت خطة الروم دفاعية أم هجومية ، والعكس بالنسبة للمسلمين هل كانت خطتهم هجومية أم دفاعية . ولا شك أن الروم لم يكن أمامهم غير الهجوم خاصة بعد تلك الهزيمة الكارثية في أجنادين ، وكان بإمكان الروم علي الرغم من هزيمتهم أن يحشدوا أعدادا أكبر فدولة الروم بما لها من إمكانيات كانت قادرة علي أن تتجاوز هزيمة في معركة مهما كانت آثارها . بينما لجأ المسلمون لا إلي الدفاع فحسب ، بل إلي الدفاع والهجوم معا . الدفاع أولا لاستنزاف أكبر قدر ممكن من قدرات العدو ، ثم انتهاز الفرصة المناسبة للهجوم الخاطف .

وبالفعل تؤكد الأعداد الكبيرة لقوات الروم وتنظيمها القتالي أنها في تشكيل قتالي هجومي بينما اعتمد خالد بن الوليد خطة من مرحلتين الأولي دفاعية لاستنزاف قدرات العدو ، ثم انتهاز الوقت المناسب للهجوم . حيث ابقي لذلك الوقت جزءا من قوات الخيالة تعمل علي هذه الغاية ([٢٥]) . وهو ما حقق له النصر بفضل الله . ويعتبر ذلك نصرا تاريخيا تفوق فيه الفرسان المسلمون خفيفي

الحركة والذين برعوا في حرب الصحراء علي القوات الرومية الثقيلة البطيئة الحركة ([٣٦]) .

لقد بينت تلك المعركة طبيعة التكتيك العسكري الجيد لدي الجيش الإسلامي . وكيف عمل علي تحريك القوات في الوقت الملائم وبالشكل الذي يمكنها من تحقيق الاستراتيجية المستهدفة .

لقد تمكن المسلمون في سنوات قليلة من بدء تكوين الدولة الإسلامية من امتلاك بصري الحصن المهم علي حدود بيزنطة ، والاستيلاء علي دمشق ، بل أن سوريا كلها صارت في أيديهم في عام ٦٣٦. كما أصبحت فلسطين إقليما عربيا مع ٦٣٧ أو ربما عام٦٣٨ ، بعد استلام المسلمين للقدس ، وأجبر الروم علي مغادرة مصر بعد ذلك بقليل ([٣٧]) .

لا ريب أن هزيمة الروم أمام الجيوش الإسلامية متعددة الأسباب وتعود في بعض منها إلي الجانب البيزنطي ، من بين تلك الأسباب عدم الكفاءة ، والفتور وسخط الجند ، وإجراءات الدفاع غير الكفؤة إن الاستراتيجية التقليدية التي اتبعتها بيزنطة في وضع خططها القتالية اعتمادا علي الأعداد الكبيرة للقوات في إطار معارك كبري لم تمكنها من تحقيق أي فوز . كما أن التكتيك الذي حاولت فرضه علي الجيوش الإسلامية لم ينفذ علي أرض الميدان بل كان الميدان أكثر ملائمة للجيوش الإسلامية خفيفة الحركة التي تجيد حرب الصحراء .

الاستراتيجية والتكتيك في الصدام المبكر :

لا نختلف كثيرا مع المؤرخ نيكول فيما ذهب إليه من أن الغزوات الإسلامية أصابت بيزنطة بالمفاجأة ، بل يمكننا القول أنها ضربت الاستراتيجية الرومية في الصميم . فهم ــ أي الروم ـ كسبوا لتوهم حربا مكلفة ضد أعدائهم التقليديين ،إلا أنهم لم يتمكنوا من الصمود أما قوة حربية

ناشئة وربما يعزو ذلك إلي أن آلاف السنين عبر التاريخ علمتهم ألا يتوقعوا خطرا من الجزيرة العربية ([٢٨]) . ولعل ذلك يفسر ما يذهب إليه البعض بالقول بأن الروم لم يعطوا كثير اهتمام ، أو ربما لم يهتموا بالمسلمين ظنا منهم أنهم جماعة من رجال الصحراء يرغبون بالسلب والنهب . ومثل أولئك أمرهم يسير متروك للمناطق الحدودية الموالية للدولة البيزنطية .

كذلك نظر الروم إلي الإسلام نظرة خاطئة فظنوه نحلة من النحل أو بدعة جديدة . لكن رسالة الرسول صلي الله عليه وسلم إلي هرقل كانت كفيلة بإعلامه بالحقيقة وتزيل أي لبس أو سوء ظن . وبينما كان اندفاع الروم بتحريض من القبائل الحدودية سببا في تورط الروم في حرب واستعداء المسلمين . فإن سوء تقديرهم للأحداث علي الأرض بدا واضحا . بدا ذلك واضحا في أجنادين وحينها كان هرقل في حمص . ولم يكن الأمر سهلا بالنسبة لهرقل مما دفعه إلي إعادة النظر في استراتيجياته الحربية، والتمركز في أنطاكية . وقد حاول بعض المؤرخين تفسير الأمر علي أنه هروب من جانب هرقل ، لكن ذلك يجانب الواقع ، ولا يمكن القبول به . فعندما قرر هرقل مغادرة فلسطين إلي أنطاكية فإن ذلك كان بسبب المستجدات العسكرية والضرورات الاستراتيجية التي تواجدت في ميدان القتال . لقد كانت حركة هرقل من فلسطين إلي أنطاكية حركة منطقية وسليمة من وجهة نظر عسكرية ، ولم تكن هروبا من مواجهة المسلمين . لقد أظهر ذلك التحرك قدرة هرقل علي تقييم الموقف تقييما سليما . وإن جاء ذلك متأخرا ، بل وعلي حساب خسارة معركة أولي هي أجنادين . أما في اليرموك فإن ما قدره الرجل من تكتيك لم يتورط فيه المسلمون كما رأينا . كان فن القيادة وإدارة المعارك أقوي في المعركتين من جانب المسلمين .

القيادة :

قادة الجيوش الرومية في مرحلة الصدام المبكر

ترجع شهرة القادة إلي ما حققوه من انتصارات ، وليس لما لحق بهم من هزائم ، وذلك أمر بديهي غير أن هرقل بلغ شهرته بما حقق من نصر وبما لحق به من هزائم . لقد كان شخصية مأساوية ، علي الرغم من شجاعته . فهو أول إمبراطور يقود جيوشه بنفسه منذ أجيال، ولأنه ألقي بكل ألقابه الإمبراطورية واتخذ لنفسه في العام ٦٢٩ لقب باسيلوس الذي كان يلقب به الحكام الإغريق وذلك ليزعم بالحق الإلهي في الحكم حيث قامت الدعاية لحروبه علي خلفية دينية كما سوق دعاته الحروب التي خاضها علي أنها حروبا دينية ليلهب حماسة جيوشه . ولعل تلك الشهرة التي اكتسبها هرقل أقلقت المسلمين لكنها لم تفت في عضدهم بل زادتهم إصرارا . وعلي الرغم من أنه كان قائدا قديرا فإنه كان يميل إلي الشك كثيرا . مما كان يدفعه إلي التدخل في سير الأحداث اليومية للعمليات ، وإن لم يكن حاذقا في هذا الشأن . وإذا كانت أكبر انجازاته هو استرجاع ما فقدته الإمبراطورية في عهود سابقه بل وفي عهده أيضا ، فإن مأساته الكبرى هو فقدان جانب كبير من الإمبراطورية أمام القوي الإسلامية الناشئة. ويشير المؤرخ ستيفن رنسيمان إلي أن السنوات التي أعقبت وفاة هرقل كانت أحلك أيام التاريخ البيزنطي ، ذلك أن فتوحات المسلمين لم تتوقف وهجماتهم لم تنقطع ( ) [٢٩] .

ومن بين القادة الروم في فترة الصدام المبكر يأتي تيودور القربلاط أخي هرقل والمعروف عنه قليل. لقد كان القائد العام الذي قاد الروم في أجنادين وهو قائد متمرس قاد عددا من الحملات ضد جيوش الفرس في الشرق ، وتصوره المصادر الإسلامية علي أنه شخص عدواني طائش . وكثيرا ما تجاهل تيودور تعليمات الإمبراطور بخصوص انتظار الإمدادات والتعزيزات . وقد أبعده هرقل إلي العاصمة القسطنطينية بعد كارثة أجنادين .

أما القائد تيودور ترثوريوس Theodore Trithourios فهو الذي قاد جيوش الروم لطرد المسلمين نهائيا من الشام عام ٦٣٦ م ، وهزم في معركة اليرموك ([٣٠]). وكان وزيرا للمالية ، عمل علي رفع معنويات الجند بسبب تخوف هرقل منهم فيما يتعلق بسداد رواتبهم . أما فاهان فكان قائدا ميدانيا للقوات الرومية في اليرموك ويعتقد أنه من أصول أرمينية ، ويلي هرقل في المسئولية الحربية عن القوات الرومية في الشام .

قادة الجيوش الإسلامية في الفترة المبكرة من الصدام :

كانت أولي المعارك كما رأينا هي معركة مؤتة ، وهي تدل علي شجاعة المقاتلين ، وقادتهم ، وقائدهم الأعلى الرسول الكريم صلي الله عليه وسلم ،لقد قاد بنفسه جيشه لغزو الروم في تبوك . وقد قاد الجيش في ظل ظروف صعبة ، ولفت أنظار المسلمين إلي ضرورة تأمين الحدود الشمالية لدولة الإسلام عندما علم بتجمع الروم مرة أخري في تبوك ، فأعد لإرسال حملة بقيادة أسامة للتأكيد علي هيبة الدولة الجديدة .

بينما أخذ الخليفة الراشد أبي بكر الصديق بعد أن فرغ من حروب الردة في مواصلة التصدي للفرس والروم معا . وكان يتمتع بحس حربي مرهف سواء علي الجبهة الفارسية أو الرومية ، خاصة عندما نقل خالد بن الوليد من الحيرة إلي الشام ، في وقت كانت القوات الإسلامية تخوض معركة مصيرية .لقد كان أبوبكر علي معرفة دقيقة بقدرات كل قائد من قادته .

وكانت الاستراتيجية التي اعتمدها أبي بكر الصديق في فتح بلاد الشام هي الاستيلاء علي أكبر جزء ممكن منها ، ولأنه كان يجهل حجم قوات الروم فإنه عندما أرسل الجيوش الأربعة أولا وقبل أن يلحق بهم خالد بن الوليد عمل علي عدم دعم جيش علي حساب الآخر . فهو يعلم أن جيوش الروم ستكون غفيرة كثيرة العدد ، لذا أمر قادته أن يحرصوا علي التماس فيما بينهم حتى إذا تعرض أحدهم لخطر يمكن للآخر مساعدته . كما أمر أن يتولي

القيادة أبو عبيدة الجراح في حالة حشد جميع الألوية ([٣١]) .

أما الخليفة عمر بن الخطاب ، فقد كان عالي الهمة ويتمتع بمهارة حربية فائقة وإذا كانت الفتوحات قد بدأت في عهد سلفه فإنه قاد حركة التوسع الكبرى والفتوحات . وتمتع بشخصية حازمة تجاه قادته مما حقق الانضباط في جيوشه . قام كذلك بإنشاء ديوان للجند حيث تسجل فيه أسماءهم ، وأعطياتهم (رواتبهم) ، كذلك أقام جيوش الأمصار . كما عمل علي توفير الخيول للقوات المحاربة حيث كان العجز واضحا في تلك الخيول في البدايات الأولي للدولة الإسلامية ، غير إن فتح الشام وهو منطقة تجود فيها تربية الخيول ، وفر متطلبات الجيش بهذا الخصوص .

ولدينا خالد بن الوليد ويصفه المؤرخ ديفيد نيكول بأنه أحد العظماء في مجال التكتيك العسكري عبر التاريخ ([٣٢]) وإن كان يستحق ذلك الوصف فإن ما جاء علي لسان الرسول الكريم صلي الله عليه وسلم بأنه سيف الله المسلول لا يعدله وصف أو لقب فالقتال هنا في سبيل الحق لأجل الحق . وإلي جانب أولئك القادة كان هناك أبو عبيدة بن الجراح ، وعمرو بن العاص ، وشرحبيل بن حسنة وغيرهم من أصحاب المهارات الحربية .

التكتيك البيزنطي :

تمتعت القيادة البيزنطية بعقلانية كبيرة مع انضباط أقل ، وقد أولت القيادة التدريبات اهتماما أكبر ، ولدينا كتاب باسم *Strategikon* عن التدريبات التي علي الضباط معرفتها ، قد تعود كتابته إلي الفترة المبكرة من عهد الإمبراطور هرقل . لقد اعتمد الجيش الرومي علي قوات مدربة تدريبا عاليا خفيفة الحركة ومجهزة بشكل جيد . وكان الجانب الأكبر من تلك القوات هم الفرسان والمشاة الراكبة المسلحة بالحراب والسهام والسيوف والدروع .

غير أن ما يعيب مثل تلك القوات عندما تخرج للحرب هو حاجتها أن تعسكر علي مساحات واسعة كبيرة . إلي جانب شهور عدة تحتاجها قوات النخبة المتواجدة في العاصمة القسطنطينية للتحرك إلي فلسطين . أما القوات المحلية فإنها تفرض في تحركها أعباء علي السكان المحليين من ميرة ومأوي . وبعد زحف طويل فإن القوات والدواب تكون بلا شك في حاجة إلي راحة طويلة . ويلاحظ أن الجيش الرومي لم يكن مكتفيا ذاتيا ، وإنما اعتمد علي خطوط إمداد مكشوفة ، وكان الجيش يعتمد علي الخيالة الخفيفة في المناطق الخطرة وفي الليل فأن الاستحكامات الميدانية تقام باستخدام عربات التموين ، وتأوي الخيول إلي مكان يعد لها . ووفقا للكتاب المشار إليه *Strategikon* فإن العربات التي تحيط بالمعسكر يقوم الرماة بحمايتها طوال الليل ، ومن خلفهم فراغ بعمق ما بين عشرة إلي خمسة عشر مترا ، يليه خيام المشاة الثقيلة ، ثم الفرسان يلي ذلك فراغ كبير في الوسط .

ولقد أمدتهم حروبهم مع الفرس بخبرة توقع مواجهات واسعة . وأن عليهم قدر الإمكان تجنب المعارك الكبرى . معتمدون في ذلك علي حرص القيادة واستبدال الأمر بالكمائن ، وتكتيك حرب العصابات . واعتمد الروم في سوريا وفلسطين علي الدفاع في العمق المدعوم بقوات صغيرة سريعة الحركة لإضعاف العدو.

التكتيك الحربي الإسلامي :

عكس التكتيك الإسلامي في الفترة المبكرة ـ إلي حد ما ـ مؤثرات رومية وفارسية مع الاعتماد علي الإبل لنقص في الخيول . وكان رماة السهام من المشاة الفرس يتقدمون في نظام متدرج لإطلاق وابل من السهام وفقا للأوامر يتلوها فوضي ومن المحتمل أن المسلمين اتبعوا نفس الطريقة وعرف رماة السهام الفرس بالسرعة التي يطلقون بها سهامهم بينما العرب استخدموا مثل البيزنطيين سهاما ثقيلة وأقل سرعة .

وكانت جيوش المسلمين في تلك الفترة صغيرة العدد تقوم علي الاكتفاء الذاتي لذا لم تكن تعتمد علي طرق إمدادات طويلة وتميزت علي أعدائها بحركتها السريعة. كما كانت لا تتورع عن العمل داخل عمق مناطق العدو ، واشتهر العرب بمقدرتهم علي الانسحاب السريع إلي الصحراء لخبرتهم السابقة بها من عمل بالرعي ومعرفة بموارد المياه .

استخدمت المشاة الراكبة الإبل للتمتع بالحركة السريعة . بينما كان الخيالة يحملون خيول الحرب علي ظهور الجمال حتى أرض المعركة . وكانت سرعة المسلمين استراتيجية أكثر منها تكتيكية . كما كان بإمكانهم التلاؤم مع المعوقات الطبيعية مثل الجبال والمستنقعات والأنهار ورمال الصحراء . وفيما يتعلق بالدعم اللوجيستي فإنهم استخدموا الدواب المختلفة في النقل ، وعلي الرغم من مقدرة الجمل علي حمل المؤن فإن البغال كانت مناسبة في مناطق الجبال .

عناصر الجيش البيزنطي :

تشكل الجيش الرومي إبان القرن السادس من عناصر ثلاث : الجند المحليون ، إلي جانب البرابرة ، والسيماخوس *symmachoi*. وهي وحدات من أعراق مختلفة . وكان الإمبراطور موريس مهتما بالتسليح الجيد للقوات ، كما كانت تلك القوات تختبر في استدعاء سنوي للتأكد من قدراتها القتالية ، وقد تزايدت أعداد الجند المحليون أثناء محاربته للفرس ([٣٣]) . لقد عمل الإمبراطور موريس علي إعادة تنظيم الجيش وهناك وصف لذلك النظام الجديد حيث كانت الوحدة هي السرية التي يعبرون عنها بأسماء منها Numerus , arithmos , tagma . وكانت السرية مكونة من ثلاثمائة أو أربعمائة جندي يقودهم رائد Comes أو تربيون Tribune . فإذا اجتمعت ست سرايا أو سبع أو ثماني تكون منها كتيبة Moira بقيادة قائد كتيبة Moerarch أو دوق Dux . وكان الروم يحتفظون بسر الأعداد قصدا حتى لا يستطيع الأعداء تقدير حجم الجيش . وكان تجميع السرايا من اختصاص القائد العام عندما تدور رحى الحرب ولم تكن

هناك فرق مستديمة ، إلا فرق مرتزقة الجرايات والجند المحالفين والجند المختارين وهم بقايا المرتزقة الأجانب الذين كانوا يشكلون جانبا من الحرس الإمبراطوري . وكان الجيش الذي أعاد موريس بناءه هو الذي اقتاده هرقل إلي ساحات المعركة بعد إعادة تشكيله ([٣٤]) .

وقد أعاد هرقل نظام توريث الخدمة العسكرية علي الرغم من أن ذلك استلزم وقتا ومالا وتعطيلا للاقتصاد المحلي حتى يمكن تشكيل القوات الجديدة . لذلك وجدت بيزنطة من الأسهل تجنيد العرب المتحالفين حيث هنالك شك متوارث حول إخلاص الأرمن .

مع نهاية القرن السادس لم يكن الفرق كبير في المكانة بين وحدات الجيش البيزنطي ، غير أن التاجما شكلت ما يمكن تسميته فرقة النخبة . وكان فرسان تلك الوحدة منحدرين من أصول قوطية شرقية وهم القوط الذين طردهم الغزاة اللمبارد من إيطاليا ، واستقروا داخل الإمبراطورية . وقد تمركزت عناصر تلك القوة في بيثينا شمال غرب الأناضول . وهم يشكلون عصب الخيالة الثقيلة ، وقد سلحوا علي النمط الجرماني . وكان التسليح مع بدايات القرن السابع بالنسبة للخيالة سيف طويل spathion مماثل لسيوف الآفار أو الفرس ، ورمح خشبي خفيف وقوس في حاملة سهام تتمكن من حمل أربعون سهما . معلقة في سرج الجواد علي النمط الفارسي ، وكان أفراد المشاة الثقيلة يحملون سيوفا أقصر ، ومزاريق قصيرة ([٣٥]) .

عناصر الجيش الإسلامي :

كانت الفتوحات الإسلامية الأولي تشن بواسطة محاربون متميزون، ومعروف أن كل الرجال المسلمون مطالبون بالتزام حربي . كما تشير كلمة جيش إلي ما يشبه القوة الشعبية . ويعني ذلك أن كل الرجال المسلمون قادرون علي الالتحاق بالجيش.

الاستراتيجية البيزنطية :

قامت استراتيجية الإمبراطورية البيزنطية علي أساس من إدراكها لوضعها الصعب تجاه أعداء ، أو من يحتمل عداوتهم ، موجودون بالفعل علي أكثر من جبهة في وقت واحد . ولقد أدرك القادة والحكام البيزنطيون تماما العلاقة بين نشر وإعادة نشر الموارد : جند ، مؤن ، معدات ، دواب وما إلي ذلك وبين قدرة الدولة في صد أي عمل عدواني والانقضاض علي المعتدين .

ومن الجدير بالذكر أن الدراسات العسكرية التي تمت فيما بين القرنين السادس والثامن الميلاديين أوضحت أن هناك عدم توازن في الموارد بين بيزنطة وأعدائها . وقد نصح القادة بعدم خوض حرب في ظل ظروف غير مواتية لأن ذلك ربما قاد إلي خسارة في الأرواح والموارد . وكانت النغمة السائدة في تلك الكتابات أن تلجأ بيزنطة إلي المناورة واستخدام تكتيكات معرقلة والكمائن وحيل استراتيجية من هذا القبيل . كانت الأمور الحربية البيزنطية تدار وفق أسس راسخة ، ومنطقية محسوبة . والهدف الرئيسي هو تأمين بقاء الإمبراطورية وفق إستراتيجية تتيح استغلالا أمثل للموارد المتاحة والمحدودة نسبيا . لقد كانت الضرورة إذن وراء توجهات بيزنطة الدفاعية([٣٦]).

الاستراتيجية الإسلامية :
وضع الخليفة عمر بن الخطاب قواعد السلوك الحربي لقواته والتي ترجع في أصولها إلي القرآن الكريم وهي تعادل ما نسميه الاستراتيجية . وكان يتم التخطيط جيدا للأعمال العسكرية . ويتجمع المتطوعون من القبائل المختلفة ، وهم هنا يعملون في جيش منظم وليس في معارك قبلية ، وكانت القوات تتجمع في منطقة بعينها ـ غالبا ما تكون المدينة المنورة العاصمة الأولي للدولة الإسلامية ـ قبل أن ترسل تلك القوات إلي حيثما قرر الخليفة . وقد جبل الجند المسلمون علي الطاعة لولي الأمر وفق تعاليم القران الكريم .
أثر الفتوحات الإسلامية علي الجيوش الرومية :
الاستراتيجية والتكتيك

لا شك أن المواجهات والمعارك علي الجانب الشرقي من الإمبراطورية البيزنطية ، كان لها الأثر الأكبر في تغير الفكر الحربي سواء الاستراتيجي أو التكتيكي للروم . لقد تطور الفكر الاستراتيجي ليواجه احتياجات اللحظة. فقد كانت الوحدات الحربية منذ القرن السادس وحتى الفتح العربي تعسكر في حاميات بطول الحدود وخلفها وتعرف باسم Limitanei " جند الجبهة " soldier frontiers . وكانت تتشكل عادة من الألوية القديمة والتشكيلات المساعدة . بينما كانت جيوش الميدان تضم وحدات مشكلة حديثا ، وتقيم في الأقاليم وفي الغالب فيما وراء الحدود ، وفق أسس إستراتيجية حيث يمكنهم من تلك المناطق مواجهة أي عدوان علي الأراضي الرومانية . لذا اهتمت بيزنطة بمناطق الحدود وما عرف باسم الثغور أو الثيمات أو البنود ، وهي مناطق تتواجد فيها ألوية عرفت باسم المكان المتواجدة فيه . كما يلاحظ أن المواجهة الشاملة أوالمعارك الكبرى لم تعد مناسبة في التعامل مع جيوش المسلمين ،لقد أفرز الفتح العربي الإسلامي للمناطق الشرقية من الإمبراطورية البيزنطية تغيرات يعتد بها . بعد فشل محاولات البيزنطيين في طردهم من خلال معارك مفتوحة وكان التحول الكبير في استراتيجية الروم هو تحاشي أيه مواجهة مفتوحة . فبعد هزيمة الروم في اليرموك عام ٦٣٦م كان عليهم الانسحاب أولا إلي شمال سورية وأرض الجزيرة . وبعد فقدان الأخيرة ، وبعد أن صعب عليهم الاتصال بحلفائهم من القبائل العربية غير المسلمة والفرس والذين كان التحالف معهم له شأن تراجعت القوات الرومية إلي خط طوروس وطوروس الداخلية ([٣٧]). وكان جعل جبال طوروس علي الدوام الحد الفاصل للتصدي للمسلمين والحد من توسعهم يستدعي تجميع طاقات الإمبراطورية كلها . وعلي الرغم من الجهود المبذولة في هذا الصدد فإن جيوش المسلمين ما انفكت علي الدوام تعبر تلك الجبال إلي آسيا الصغرى ([٣٨]). إن النتيجة الملموسة هي انسحاب القوات الميدانية من المناطق التي كانت تعمل بها في سوريا ، وفلسطين وأرض الجزيرة إلي الأناضول للاحتماء بها ، وفق استراتيجية جديدة .

لقـد تراجعـت كـل الجيـوش الميدانيـة إلـي المنـاطق الداخلية خلف خطوط مواقعها الجغرافية الأولـي ، ويلاحـظ أن المنـاطق الجديـدة التـي تراجعـت إليهـا تلـك الجيـوش متخذة منها قواعد لها كانت تختار وفق قدرة تلك المنـاطق علـي تـوفير الـدعم اللوجيـستي والمتطلبـات الأخـرى ([٣٩]) .

كما اتبعت بيزنطة تكتيكا جديدا وهـو محاولـة اسـتنزاف قـوات العـدو حتـى لا يبقـي طـويلا فـي الميـدان . وضـرب خطـوط إمداداتـه وتـسريب معلومـات مـضللة عـن نوايـا الجـيش البيزنطـي ، واعتمـدت علـي الخيالـة المدرعـة الخفيفة في المواجهات مـن أجـل التحـرك الـسريع علـي أرض الميدان .

الخلاصة :

لقد كانت الإمبراطورية البيزنطية دوما في حالـة حـرب ، علي واحدة مـن جبهاتها إن لـم تكـن أكثـر ، وكانـت تعمـل دوما مـن أجـل البقـاء . واعتمـدت فـي الجانـب الأكبـر مـن جيوشها علي الجند المرتزقة . وقامت اسـتراتيجية الدولـة علي أساس تجنب القتال قدر الإمكان . وقد أرغمـت علـي حرب ضروس مع الفرس في وقت كانت فيه الأوضاع علي جميع الأصعدة غاية في السوء والتدهور . بيد أن أخطر مـا واجهته بيزنطة كان عدو غير محتمل ، فهي لم تكـن علـي عداء مع أبناء الجزيرة العربية ولا تتوقع منهم خطـرا كبيـرا ، إلا أن حلفاءها الغساسنة جلبوا عليها تلـك العـداوة والتـي أدت إلي حدوث مواجهة بـدأت فـي العـام التاسـع للهجـرة ولـم تنتهـي إلا فـي العـام ثمانمائـة وثمانيـة وخمـسون للهجرة عندما سقطت العاصمة البيزنطية القسطنطينية .

---

[1] - Haldon, John: Warfare, State and Society in the Byzantine World, 565-1204. London. Publication Year: 1999. Page Number: 34.

[٢] - عمر كمال توفيق : تاريخ الدولة البيزنطية ، الإسكندرية ٢٠٠٠، ص ١٧

[٣] - Haldon, John : Byzantium at War,p13

[٤] - David Nicole , Romano – Byzantine Army (4th - 9th century) p.13

[٥] - يبدو أن أسرة هرقل انحدرت من أصل أرميني ، وتولي هرقل الكبير أبو الإمبراطور هرقل ولاية شمال أفريقيا في عام ٦٠٧،واشترك هرقل الكبير في مؤامرة ضد الإمبراطور البيزنطي فوقاس (٦٠٢- ٦١٠) الذي كان عصره من عصور الانهيار العسكري والاقتصادي ، وتمكن هرقل بفضل ما فعل أبيه من اعتلاء عرش بيزنطة في ١٥ أكتوبر ٦١٠ ، للمزيد أنظر، حسنين محمد ربيع : دراسات في تاريخ الدولة البيزنطية ، ص ٦٠.

[٦] – كارين أرمسترونج : القدس ، مدينة واحدة وثلاث عقائد ، ترجمة : د. فاطمة نصر ، د. محمد عناني ، القاهرة ١٩٩٨، ص ٣٦٤.

[٧] - Warren Treadgold, Byzantium and its Army 284-1081,U.S.A.1995 ,19،

[٨] - **حسنين محمد ربيع** : **دراسات في تاريخ الدولة البيزنطية ، ص ٦١.**

[٩] - Clifford R. Backman , The Worlds of Medieval Europe , New York 2003 , p. 73.، **أنظر أيضا حسنين ربيع ، المرجع السابق ، ص٦١.**

[١٠] – Edward D. Enhlish , ed. , Encyclopedia of the Medieval world . U S A 2005 , p.34 ١ .

[١١] - Warren Treadgold, Op. cit,p.20.

[١٢] - **محمد مؤنس عوض** : **الإمبراطورية البيزنطية ، ط ١،دار عين القاهرة ٢٠٧، ص١٨٧.**

[١٣] – كانت رسالة الرسول صلي الله عليه وسلم إلي هرقل عندما دعاه إلي الإسلام : " من محمد رسول الله إلي هرقل عظيم الروم ، سلام علي من اتبع الهدي . أما بعد فإني أدعوك بدعاية الإسلام ، أسلم تسلم ، وأسلم يؤتك الله أجرك مرتين ، فإن توليت فإن عليك أثم الأريسيين ، يا أهل الكتاب تعالوا إلي كلمة سواء بيننا وبينكم ، ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئا ، ولا يتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله ، فإن تولوا فقولوا أشهدوا بأنا مسلمون " والأريسيون ليست كلمة عربية ويبدو أنها تعني الرعايا العاديين . انظر : حسنين محمد ربيع ، المرجع السابق ، ص ٦٥.

[١٤] – للمزيد أنظر : عبد الرحمن أحمد سالم : المسلمون والروم في عصر النبوة ، دراسة في جذور الصراع وتطوره بين المسلمين والبيزنطيين حتى وفاة الرسول صلي الله عليه وسلم ، القاهرة ١٩٩٧ ص ٦.

[١٥] – عبد الرحمن أحمد سالم : المسلمون ، ص٧٩.

[١٦] – David Nicolle , Yarmok 363 AD the Conquest of Syria , London 1994 , p. 16

[١٧] – علي محمد المراشدة : اليرموك الاستراتيجية والحسم، الأردن ١٩٩٧ ، ص ٤٥.

[١٨] – عبد الرحمن أحمد سالم : المسلمون ، ص ٩٦ .

[١٩] – Ismael Abul – Feda , De Vita Mohammedis ,A.D MDCCXX111 (1723) , p.124.

[٢٠] - Ismael Abul-Feda , Op.Cit . p .123.

[٢١] - محمود شيت خطاب : الرسول القائد ، ط ٦ ، القاهرة ٢٠٠٢ م ، ص ٤٠١

[٢٢] - محمود شيت خطاب : الرسول القائد ، ص ٤٠٧
[٢٣] - الجنرال أ . أكرم : سيف الله خالد بن الوليد ، دراسة عسكرية تاريخية عن معاركه وحياته ، ترجمة : العميد الركن صبحي الجابي ط . ٧ ،بيروت ١٩٩٤ ، ص ٣٤١.
[٢٤] – لدينا نص الرسالة التي بعث بها أبي بكر الصديق إلي خالد بن الوليد : بسم الله الرحمن الرحيم ، من عبد الله عتيق بن قحافة ، إلي خالد بن الوليد ، السلام عليكم ، أحمد الله الذي لا إله إلا هو ، وأصلي علي نبيه صلي الله عليه وسلم ، سر حتى تصل جموع المسلمين في بلاد الشام ، فهم في حالة كبيرة من القلق ، وإنني أعينك قائدا علي جيوش المسلمين وآمرك أن تقاتل الروم ، وأنت القائد علي أبي عبيدة ومن معه . وأذهب أبي سليمان ، وأتمم عملك بمعونة الله جل شأنه ، واقسم جيشك قسمين ، ودع النصف مع المثني الذي سيخلفك في العراق . فإذا فتح الله عليكم الشام فارجع إلي عملك ولا يدخلنك عجب فتخسر وتخذل ولا تتباطأ بعمل فإن الله عز وجل له المن وهو ولي الجزاء " المراشدة المرجع السابق ص ١٥٥.
[٢٥] – المراشدة : اليرموك ، ص ٢٠٥ .
[٢٦] ـ محمد مؤنس عوض : الإمبراطورية البيزنطية ، ص ١٩٣.
[٢٧] - BYZANTIUM eds. A.A.Vasiliev , Byzantine and Islam (pp. 308-326). p.309 in .L . B . Moss , Oxford 1948 & Norman Banes
[٢٨] – Nicolle , Rome s enemies 5 , p.3
[٢٩] - ستيفن رنسيمان : الحضارة البيزنطية ، ترجمة عبد العزيز توفيق جاويد ، القاهرة ١٩٩٧، ص ٢٩.
[٣٠] ـ .David Nicolle, Yarmok . ,p.18
[٣١] - جنرال أكرم : سيف الله خالد بن الوليد ، ص ٣٤٥
[٣٢] - ، p.19. David Nicolle
[٣٣] - .Nicolle , Yarmok . ,p24
[٣٤] - ستيفن رنسيمان : الحضارة البيزنطية ، ترجمة عبد العزيز توفيق جاويد ، القاهرة ١٩٩٧، ص ١٦٢.
[٣٥] – Nicolle , Yarmok. , p. 34
[٣٦] - Haldon, Byzantine at war ,p.36
[٣٧] - Haldon,John, Warfare , State and Society in Byzantine World 565- .1204,London1990,p.71
[٣٨] - ستيفن رنسيمان : المرجع السابق ، ص ٣٩ .
[٣٩] - Haldon, warfare ., p.31

